

العنوان:	اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في المملكة العربية السعودية : الواقع والتحديات وإستشراف المستقبل
المصدر:	الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني
الناشر:	مجمع اللغة العربية الأردني
المؤلف الرئيسي:	ابن تنيك، مرزوق بن صنيان
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2005
مكان انعقاد المؤتمر:	عمان
رقم المؤتمر:	23
الهيئة المسؤولة:	مجمع اللغة العربية الأردني
الشهر:	جمادي الأولى / حزيران
الصفحات:	73 - 126
رقم MD:	208372
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	التعليم الجامعي، السعودية، اللغة العربية، قرن 21 م، تعريب التعليم، تدريس اللغة العربية، اللغات الأجنبية، اللغة الفصحى، اللغة العامية، إعداد المعلمين، معلمو اللغة العربية، العولمة الثقافية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/208372

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب
الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

ابن تنباك، مرزوق بن صنيان. (2005). اللغة العربية في القرن الحادي
والعشرين في المؤسسات التعليمية في المملكة العربية السعودية: الواقع
والتحديات وإستشراف المستقبل. الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع
اللغة العربية الأردني، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، 73 - 126. مسترجع
من <http://208372/Record/com.mandumah.search/>

إسلوب MLA

ابن تنباك، مرزوق بن صنيان. "اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في
المؤسسات التعليمية في المملكة العربية السعودية: الواقع والتحديات
وإستشراف المستقبل." في الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة
العربية الأردني عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، (2005): 73 - 126. مسترجع
من <http://208372/Record/com.mandumah.search/>

© 2023 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.

هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك
تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل
مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

المحاضرة الثانية

اللغة العربية

في القرن المادي والعشرين في المؤسسات التعليمية
في المملكة العربية السعودية، الواقع والتحديات واستشراف المستقبل

الأستاذ الدكتور مرزوق بن صنيان بن تنباك

قسم اللغة العربية- جامعة الملك سعود

المملكة العربية السعودية

الثلاثاء ٨ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - ١٧ أيار ٢٠٠٥م

اللغة وموقف بعض أهلها منها :

اللغة العربية الفصحى كما هو واقعها لغة أنموذج، متميزة بين اللغات القديمة ذات الرسائل الدينية والحضارية، وهي لغة أنموذج متميزة أيضاً بين اللغات الحديثة التي تعيش على أمل الانتشار الواسع في المستقبل، وهي لغة الوحدة والانتماء الواضح الذي تنتشده كل أمة تعتر بلغتها وذاتها وتمد حاضرها على مساحة الأرض التي تعيش عليها شعوبها وسكانها.

إلا أن طبيعة اللغة - أي لغة- وطبيعة الحياة توجب استمرار الرعاية الدائمة والمتابعة المستمرة حتى لا تتجاوز الأشياء طبيعتها وألا تترك الأحداث على سجيتها. واللغة كائن حي متطور يحتاج إلى توجيه في نموه وتطوره ليوافق السياق الذي ينسجم مع أصله ويعتمد على قاعدته، فهي كالشجرة الوارفة التي تنتشر أغصانها وتتهدّل حولها وتتسع بجانبها، وإذا لم تقطع هذه الأغصان وتُشَدَّب شجرة اللغة تحوّلت أغصانها إلى أحرّاش ونباتات ضعيفة تعيش في كنف الشجرة الوارفة وتمص الماء الذي ينساق في أصلها وتحرمها الظل والشمس، فيضعف قوامها كلما قويت الأعشاب المحيطة بها وامتدت فروعها بعيداً عن أصلها وتشعبت اتجاهاتها وانحرفت عن نسق الشجرة الأصل وسموها.

وتلك أقرب صفة تمثّل حال الفصحى والعامية أصدق تمثّل. لأنّ اللهجات العامية تبدأ بجانب اللغة الأم وتعيش معها وفي كنفها ثم تأخذ بالانحراف عنها والإحاطة بها والانتشار حولها ثم تحول دون سهولة الوصول إليها، فيصعب على

الأقدام الضعيفة التجاوز، فتقف في مطامن الأحرش ويظن العاجزون والمتعلّون بالأسباب أن هذا يغني عن برد الدوحة الباسقة والشجرة الظليلة. وقد تقوم تلك الأحرش مكانها إلا إذا وجدت من ينتبّه لها ويميز بين الأصل والفرع، فيقومُ اعوجاج الأغصان المتهدلة والمنحرفة.

واللغة العربية الفصحى تعيش اليوم في خضمّ متلاطم من أحرش العامية وتخوض حرب البقاء المشروع على الرغم مما تواجه من صور التحدي، ولاسيما عندما ينتشع الناس بالثقافة العامية ويعيشونها ويعجبون بها، ويجد الكثر من أبناء العربية العامية مُيسرة سهلة لديه، فيميل إليها ويستعملها ويتفاعل معها ويظن أنه يستطيع أن يستغني بها عن الفصحى، فيعيش حالة من الانفصام الثقافي ويعيش حالة من الازدواج اللغوي. ويخدع نفسه أحيانا بشيء من التبرير لاستعمال العامية بدل الفصحى، وقد تكون لمبرراته أسباب كثيرة بعضها خارج عن مدى تصوره وإدراكه لوظيفة اللغة الفصحى التي يجب أن تقوم بها، وضرورة العامية التي يستعملها. كما أن بيان وظيفة كل منهما يخفى في بعض الأحيان على الخاصة من الناس فما بالك بأمر العامة الذين لا يعرفون في حياتهم أقرب من العامية وأسهل منها. إن الحاضر يشهد خللاً بيئياً في فهمنا لوظيفة اللغة الفصحى وفي فهمنا لاستعمال ضرورات العامية، ولا نميز الخطر الذي يواجه الأمة العربية عندما تستنيم إلى سهولة العامية وتتجافى عن الفصحى. وقد انتقل الحال في الوقت الحاضر من استعمال العامية الصامت إلى الطرح لها على ساحة الواقع الاجتماعي، وبدأت أقلام وآراء تطالب بإعطاء العامية مساحة للحضور والظهور ومشاركة الفصحى حقها، واستعمل في

هذا الطرح وسائل التثقيف العامة ومصادر المعرفة المشتركة، ونزلت العامية بقوة إلى ميدان الفصحى حتى بلغ الأمر حد الخطر الذي نخشاه على مكتسباتنا الدينية والقومية والاقتصادية والتربوية وعلى لغتنا بعد ذلك وعلى وحدتنا وذاتنا وكياننا.

وبنظرة سريعة واستعراض موجز للآراء التي تسوّغ استعمال العامية وتدعو إليها نجد أننا أمام توجه عارم إلى العامية وإلى أدبها وشعرها ولغتها، وأن أصحاب هذا التوجه يتوزعون على كل الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ويقومون بعمل منظم تؤيده بعض وسائل الإعلام وتشره للناس. وقد اختلفت آراء أصحاب التوجه العامي، فأشدها تطرفاً من يدعو إلى إطلاق رصاص الرحمة على جسد اللغة العربية الفصحى - كما يقول - كي تستريح وتريح، ويدعو لأن تحل اللغات العامية محلها، ويصفها بأنها أصل معطوب وأنها قد انقطعت عن الحياة وانقطعت الحياة عنها" (١).

ومنهم من يرى أن تُطعم الفصحى بالعامية وتُخلط معها، ويصف الفصحى بأنها عُزلت عن معظم مجالات الحياة قروناً طويلة حتى قلّت طواعيتها للتعبير الحي الدقيق. وخير وسيلة لمدها بروح الحياة - كما يرى - تطعيمها بإيقاعات اللهجات العامية (٢). وثالث يرى أن علينا أن نخاطب الشعب بلغته أيضاً لأن الفصحى - في رأيه - عاجزة عن هذا الدور، ويرى أن تكون الفصحى لغة المنظومة التربوية للتعليم الأكاديمي وهي صالحة لذلك، أما أن تكون لغة الفنون

١. السياسة الكويتية، العدد ٦٦٦٩ في ١٤٠٧/٧/٢هـ - الموافق ١٩٨٧/٣/٢.

٢. نظرية التطعيم الإيقاعي في الفصحى.

والتعبير عن مشاعر الشعب وقضاياها فيعتقد أنها غير قادرة على ذلك، وسيكون للأدب العامي في رأيه - مستقبل زاهر بكل تأكيد^(١).

وفي وسط البلاد العربية نجد صوتاً آخر يلحُّ على إقليمية حادة، ويقول عندما سُئل عن العامية والفصحى: " أرى أن المصريين اكتسبوا مساحات كبيرة بفضل صلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودي، وفؤاد حداد وغيرهم وأصبح هناك تجاوب بين الفصحى والعامية. ولم تعد الأخيرة مدعاة للزراية فقد أثبت هؤلاء أن من الممكن معالجة كافة الموضوعات بها". ثم يتناول قضية الأدب فيقول: " لا أعرف كيف نلحق نوعاً من الأدب ليعبر عن جميع الدول العربية، لذلك لا أعتقد أنه من الممكن أن يكون هناك أدب يعبر عن الوطن من المحيط إلى الخليج^(٢).

ويأتي صوت من المغرب العربي فيقول: " إن العربية باتت مشكلة كل العرب، حتى عرب مائة بالمائة ما زالت العربية تتعثر عندهم وما زالت لا تتعدى لغة القراءة والكتابة. العربية لم تصل بعد إلى لغة العمل، أصابها أهلها بالقصور لأنهم - وأقول بمرارة - أهل قصر وعجز، ألا نستحي ونحن نطوي الصفحات الأخيرة من القرن العشرين ولا معجم لنا يساير العصر؟! لذلك لا غرابة أن يتجه البعض إلى الدارجة أو العامية للتعبير لأنها "لغة" حية بحكم سعة التعامل بها وتغلغلها في عامة الناس تخاطباً وعملاً، أما اللغة البربرية التي هي فصيلة العربية

١. كاتب سياسي، من الجزائر.

٢. لويس عوض، جريدة السياسة الكويتية، العدد ٦٧٥٧ في ٤/١٠/١٤٠٧ الموافق ٣١/٥/١٩٨٧

فأنا معها كوسيلة للتعبير بشرط أن تكتب بالحرف العربي حتى تبقى مربوطة إلى لغة الإسلام " (١) .

هذا المتحدث بهذا الأسلوب الركيك، فكرة ومضموناً، هو محمد العروسي المطوي الأمين العام لاتحاد الكتاب والشعراء العرب على ذمة "ثقافة اليوم" في جريدة الرياض. هذه أقوال لبعض الكتاب الداعين إلى العامية المبغضين للفصحى أتيت بها واخترتها لأنها تمثل رأياً يتوزع توزيعاً جغرافياً مناسباً، فأخذنا من أقصى الشرق العربي كاتباً من الكويت ومن أقصى المغرب العربي الجزائر آخر، وما بين هذين الطرفين من البلاد العربية أخذنا رأي كتاب آخرين من المشهورين والمعروفين في كل البلاد العربية يقرؤهم العرب كافة وآراؤهم منشورة في وسائل الإعلام العامة المتاحة لكل القراء العرب، وهم كما يتضح من أقوالهم يدعون دعوة صريحة إلى تقويض أركان اللغة العربية الفصحى ودعوة مكشوفة إلى إحلال العامية محلها، وما هذه الأقوال إلا نماذج مختارة من أقوال كثيرة ومكررة لعدد من الكتاب الذين يعيشون في المحيط العربي ويتكلمون العربية الفصحى ويكتبون بها ويقفون منها هذا الموقف الذي يعد عدواناً على مبدأ استعمال اللغة، بله الحديث عن حقيقتها ووظيفتها، وفي الوقت نفسه يشيدون بالعامية ويخلعون عليها ما ليس فيها ويمجدونها وكأنها قد خلقت الناس خلقاً آخر. وإذا كانت آراء هؤلاء وغيرهم ممن لم نذكر يتبين فيها البعد عن الحقيقة ويتبين فيها الموقف الجلي من اللغة وموروثها الحضاري قبل الموقف من وظيفة اللغة كعامل اتصال بشري، فإن ما يخفف هذه

١. جريدة الرياض، العدد ٨٦٢٠ في ٢٦/٧/١٤١٢هـ.

القسوة التي يوجهونها إلى صميم اللغة ويخفف هذه السهام الحادة التي يطلقونها على جسدها هو معرفتنا بصلة هؤلاء باللغة وصلتهم بموروثها الديني والحضاري. فالعربية الفصحى يحافظ عليها من يحترمها، إما لأنها لغة الإسلام، وإما لأنها لغة العرب ولغة الوحدة الشاملة فبعض من ذكرنا آراءهم لا يؤمنون بالإسلام ولا يريدون بقاءه ولا المحافظة عليه. وهي لغة انتماء عربي أصيل وليس لبعض من نقلنا آراءهم ضد العربية الفصحى صلة نسب عربية وانتمائهم ونسبهم إلى غير ذلك. وهي لغة وحدة شاملة للعرب والمسلمين، وما قائل أكثر من وردت آراؤهم منذ نعومة أظفارهم حتى بلغوا سن الشيخوخة إلا من أجل فصم عرى من الوحدة وتشتيت الأمة العربية إلى قوميات وإقليميات وتشرذم واختلاف حتى لا تقوى به على أحد ولا تعتر به في أي موطن. وإذا تجردنا من كل عاطفة فيجب أن نقدر جهودهم لأنها تصب في مصالحهم وتدافع عن ذاتهم وتعمل من أجل فئاتهم التي ينتمون إليها ولا غرابة. ومن مصالحتهم أيضاً أن تموت الفصحى وتعيش العاميات. وإذا أرادوا أن يهدموا السور العظيم الذي خلطهم وجمعهم مع قوم يفوقونهم عدة ويكثرونهم عدداً فهم يسعون لمصلحتهم وقد لا يرى بعضنا غرابة في الأمر، ولكن الغرابة فيه أن يتجرأ كُتَّاب في محيط عربي فيوجهوا إلى العربية هذا النقد اللاذع ويخاطبوا العرب والمسلمين بأهوائهم وآرائهم وأن يجدوا من يستمع إليهم ويتلذذ بسماع شتائمهم ويصفق لصفعاتهم التي توجه إلى العرب قبل أن توجه إلى اللغة، مما شجع هؤلاء على نشر ما يتمنون وما يسعون إليه على قراء العربية وأهلها، وينفثون أفكارهم بهدوء ويطرحونها على هذه الأمة التي احتضنتهم ورعتهم

وأحسنت إليهم فيردون على الإحسان بالإساءة، والأسوأ من ذلك أن يتعلّق بعض أبناء اللغة العربية للصرحاء وأبناء الحضارة الإسلامية المخلصين بتلك الأفكار ويتلقونها ببراءة الأطفال ويردّدون ما يمطرهم به أصحاب الأغراض من الداخل من سهام فكرية، فيساعدونهم بشن حرب العامية على الفصحى متذرعين بالإقليمية مرة وبالشعبية أخرى، وبمخاطبة العامة تارة، وبتعميم الفصحى وتفصيح العامية تارة أخرى. وكل ما يدعون إليه وينادون به يصب في إبناء الموتورين الذين يعلنون على الملأ بغضبهم للعرب وللدّين وللعروبة، ويصرّحون فيما يكتبون بأن العرب والعربية طارئون عليهم غالبون لهم وهم أهل البلاد الأصليين وأهل الحق في التخلّص من هذا الطارئ الدخيل.

ولمن لا يصدّق ما أقول أسوق النصّ الآتي حرفياً الذي نشره كاتبه مفتتحاً به مجلة "ابن عروس" الصادرة من القاهرة، إذ يقول: "إن اللغة العربية الفصحى لغة وافدة إلى بلاد كانت تتكلم لغة أخرى على امتداد زمن يقاس بالآلاف السنين... والذين تعلّموا الفصحى مهما بلغت تجلياتهم الإبداعية من ذروات فإن القيمة الجدلية لإبداعهم تظل محدودة جداً حسب ضيق رقعة القراء إن الإبداع الذي حملته الفصحى إنما هو إبداع فئة أو طائفة من المثقفين أما الإبداع في العامية فإنه إبداع شعب كامل... إن المواطن يمارس حياته بالعامية. بل يأكل ويشرب ويحلم ويتوجع ويتأوه بها، أي إنها حاملة لكل همومه وطموحاته وأحلامه وهي العامية الأقدر والأبلغ في التعبير عنها وعنه" (1).

١. جريدة المدينة، الأربعاء الأسبوعي في ٢٤/٩/١٤١٢هـ الموافق ١٧/٣/١٩٩٣.

يصف الفصحى بمصر بأنها وافدة، وأن أهل العربية في مصر قلة من القراء، وأن الإبداع بالفصحى إبداع فئة وطائفة والإبداع بالعامية إبداع شعب كامل، هذه المجلة حتى وإن كانت تمارس الهراء فيما تقول، فإنها لم تصدر عن مؤسسة خاصة ولم يتول إصدارها ممولٌ أجنبي أو مال شخصي، وإلا لقلنا إنها تعبر عن رأي الممول والناشر والكاتب، لكنها تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالتعاون مع المركز المصري العربي للنشر، وتمول من المال العام للعرب والمسلمين في مصر. ولكن ليت الهيئة المصرية للكتاب والمركز العربي للنشر قرأاً قبل أن يصدقا أن اللغة العربية وافدة من ألف وخمسة عشر عاماً إلى مصر جملةً كتبها المرحوم يحيى حقي الذي وفد أبوه إلى مصر من تركيا قبل مئة عام، حين قال: "خذوا بالكم أنا صحيح من أصل تركي لكن هذه البلدة التي تسمى مصر لها قدرة غريبة على الامتصاص والاستيعاب وأكل كل أجنبي عنها بحيث لا يستطيع الفكك منها، ففيها سر من الله لا نعرفه. لذلك لو عصروني في معصرة قصب لن تخرج مني نقطة تركية فأنا مصري مائة في المائة بل أكثر من المصريين مصرية لأنني شديد الإحساس بكل ما يتعلق بمصر سواء من تاريخ أو عادات" (١). وليتهم نظروا في تاريخ اللغات فلن يجدوا في مصر ولا في العالم كله لغة حية أطول تاريخياً من اللغة العربية في مصر، فعمرها فيه ألف وأربعمئة عام بالضبط وعمر أطول لغات أوروبا الحديثة تاريخياً في أوروبا لا يزيد على خمسمئة عام.

١. جريدة الرياض، العدد ٨٩٣٥ في ١٦/٦/١٤١٢ هـ الموافق ١٠/١٢/١٩٩٢ م.

ولم نسمع أحداً زعم أن اللغة الفرنسية وافدة إلى جزء من أوروبا فأصبحت فرنسا، ولا أن اللغة الإنجليزية وافدة إلى الجزيرة البريطانية، ولا الإيطالية ولا الإسبانية والألمانية والبرتغالية وافدة إلى مناطق من أوروبا لم تكن لها قبل خمسمئة عام. بل لم نسمع الأمريكيان الذين حاربوا الإنجليز وأخرجوهم من أمريكا استغنوا عن اللغة الإنجليزية وأخرجوها مع أهلها، ولم نسمع أحداً في أمريكا الجنوبية يزعم أن لغات أمريكا الجنوبية وافدة من شبه القارة الأوروبية وعمر هذه اللغات في أمريكا الجنوبية لا يزيد على منتي عام. ولم يبحث علماء اللغات ومؤرخوها عن جذورها البعيدة كما يبحث ناشرو مجلة " ابن عروس " متى وفدت العربية إلى مصر. ومن هم لا أمّ لهم حتى يصنّفوا الوافد والمقيم في أرض الكنانة؟ فمصر صهرت اللغة وأهل اللغة وامتصتها بتربتها الطيبة وتشربت بها ولو عصرت كل ذرة من تراب مصر ما وجدت إلا العربية والعرب.

إن هؤلاء القوم عندما يمجّدون العامية لا يمجّدونها حباً لها أو قناعة بأهميتها ووظيفتها التي يزعمون أنها تقوم بها لكنهم يتوسلون بهذا التمجد لما يريدون الوصول إليه وهو زحزحة الفصحى عن طريق أهدافهم التي يأتي في مقدمتها خلخلة وحدة الأمة العربية، وبلبلة الانتماء الثقافي وخط الأوراق وطرح خيارات بديلة، منها العاميات العربية ومنها لغات الأقليات الموجودة ولهجاتها وليس ما نقول تخميناً أو استقراء ولكنه رأيهم المعلن في الصحافة والإذاعة، فأحد هؤلاء الكتاب الذين ذكرناهم أنفاً يصرح في فرنسا: "إن العدو الأول للبربرية في الجزائر هو الإسلام ومن ثم يجب القضاء عليه، وإذا كان أجدادنا البربر قد انهزموا أمام

الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي فمن واجبنا اليوم أن نثار لأجدادنا ونحن أقوى وأفضل حالاً منهم قبل أربعة عشر قرناً^(١)

إن هذا الرأي لا يقره ولا يوافق عليه أغلب المسلمين البربر الذين يشهد لهم التاريخ الحديث والقديم بمواقفهم المشرفة من الإسلام والوحدة العربية، وهم الذين رفضوا الظهير الفرنسي أثناء الاحتلال والاستعمار وردوا عليه الرد المعروف، وهم الذين يتمسكون حتى هذه اللحظة بالإسلام ولغته ووحدتهم مع إخوانهم العرب. ولا يجوز لفرد، حدث أن أصله بربري، التحدث باسم الشعب العربي والبربري المسلم والأولى به أن يعبر عن رأيه الشخصي في اللغة ورأيه في الإسلام وهو رأي لا يمثل غيره ولا ينسحب على سواه من الشعب المغربي كله.

ثم إن هذا الثأر الذي صرح به واحد من دعاة العامية هو الهدف الذي يسعى إليه كل دعاة العامية في الوطن العربي شرقه وغربه من كان منهم من العرب ومن ليس منهم، وهو الدافع الذي حجب إليهم العاميات واللهجات، وجعل العقلاء منهم يلتبسونها - أي العاميات وسيلة لأخذ الثأر والانتقام. ولن نخاطب الموتور الثائر الذي مضى على ثأره ألف وخمسة عام - كما يقول ولكننا نوجه الخطاب للذين يطلب الثأر من دمائهم، وهم يقفون في صفوف الثائرين ويرفعون سلاح الثورة ليفتك في أجسادهم ويسفك دماءهم قبل غيرهم. ونقول لهم : هذه أمامكم أقوال من تتبعونهم وتدعون بدعوتهم أوضحناها لكم ونصصنا عليها بين أيديكم وأعطيناكم خلاصة فكرهم وسبب دعوتهم للعامية وتفضيلهم إياها، وبأسنتهم ندينهم، ولم نتجن

١. جريدة الشرق الأوسط العدد ٤٢٧٣، في ١٩/١/١٤١١هـ - الموافق ١٠/٨/١٩٩٣.

على أحد منهم ولم نقل ظناً أو تخميناً. أمّا أن يكون لدينا عامية وفصحى فلا خلاف في ذلك، وفي كل لغة من اللغات توجد ثنائية الفصحى والعامية، توجد الفصحى وتمتد امتداد الدولة أو الشعب الذي يتكلم اللغة العربية، وتوجد العاميات خطوطاً متقاطعة في مناطق محدودة وفي مساحات ممتدة، ولكن العاميات لا تشكل لوناً خاصاً بها وإنما الشكل الظاهر للفصحى. أمّا العاميات فلحمة خفية وتلك مسلمة لا أظن أحداً ينكرها، وإنما المنكر أن يجعل وضع اللغة العربية الفصحى وصلتها بعاميتها وضعاً مختلفاً عن كل فصحى وعامية في العالم، وكأنه لا توجد لغة فصحى وعامية إلا في الوطن العربي وفي العربية.

تحديات الأعداء:

اهتمّ أعداء اللغة العربية بها وقالوا في مؤتمرهم الذي عقده في العام الماضي ٢٠٠٤م بشأنها: "نحن قادة مجموعة الثماني ندرك أن السلام والتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي في بلاد الشرق الأوسط الكبير يمثل تحديات تهمننا" ومما يهمهم من أمر لغتنا وأمرنا ما جاء في تقريرهم تحت عنوان "تحديث اللغة العربية" (١):

١. إن عدم تطوير اللغة العربية وعدم تحريرها من أشكالها القديمة التي ظلت عليها منذ قرون، خاصة أن ذلك أدى فعلياً إلى صعوبة كبرى في استيعاب أهل الحضارات والأديان الأخرى لهذه اللغة أو تعلمها أو الاقتراب فكرياً ممن يتحدث بها.

١. مجلة الهلال المصرية العدد ١٥٢ ذو الحجة ١٤٢٥هـ - فبراير ٢٠٠٥.

٢. إن الإرهابيين الذين يتحدثون اللغة العربية وتتم ترجمة كلماتهم إلى الإنجليزية أو الفرنسية لا نعرف شعورهم الحقيقي أو الدوافع الكامنة وراء ارتكابهم لهذه الأحداث ، لأن الترجمة العربية إلى اللغات الأخرى يبدو أنها تواجه مشاكل حقيقية نحن غير قادرين على تصنيفها وتبيان أسبابها الحقيقية.

٣. إن العلوم الدولية لا تستطيع أن تعتمد هذه اللغة بسبب تعقد رموزها وصعوبة أشكالها في الوقت الذي يستطيع أهل اللغة العربية ومتحدثوها إتقان اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية مثل الإنجليزية والفرنسية.

٤. العرب يتحدثون اللغات الأوروبية مثل أهلها تماماً مما يؤكد سهولة أشكال وحروف اللاتينية وقدرتها على التأقلم والتطوير تحت أي ظرف.

٥. ندرك أن هناك لغة مشتركة يمكن أن تجمع كل سكان الكرة الأرضية فيما عدا الذين يتحدثون باللغة العربية وهو مما يجعل من الصعب بنا التواصل معهم أو معرفة دوافعهم النفسية.

٦. إن صعوبة التفاهة اللغة العربية مع اللغة الإنجليزية كانت الدافع الرئيسي وراء موجة الكره العربي لأمريكا وإسرائيل والشعور بالبغض والانتقام من الذين يتحدثون الإنجليزية والفرنسية.

في ضوء هذه النقاط التي حملها تقرير الدول الثماني العام المنصرم نستطيع معرفة المشكلات التي تواجه اللغة العربية.

اللغة الفصحى:

العامية

نعلم أنه منذ بدأت حركة التنوير - كما يقول المؤرخون للنهضة الحديثة في البلاد العربية- واللغة الفصحى ذاتها ومكانتها ومناهج تعلمها وواقعها في بلادها موضع للنظر، ومجال للشكوى من غربة اللسان العربي الفصيح وضعفه، مع ماله من مكانة تاريخية وماضٍ مجيد، وقدرة حية صالحة لكل زمان ومكان، وقد تكررت الشكوى شعراً ونثراً، ومن ذلك قول الأستاذ سليمان التاجي الفاروقي (١) .

العرب لا شقيت في عهدك العرب سيوف ملكك والأقلام والكتب
وكل خير أتى فالعرب مصدره بل أي فضل أتى لم تحوه العرب
لسانهم أخلق الإهمال جدته فبات ينعى على الكتاب ما كتبوا
تمشّت اللهجة العجماء فيه إلى أن أنكرته بنوة الخالص النجب

ولم تقطع الشكوى منذ ذلك الحين حيث توالى الصيحات التي تنذر بالخطر وتنادي بالمحافظة على سلامة اللغة العربية الفصحى، وتفتيتها من اللحن، وتحاول البعد بها عن مهووي العامية واللكنة التي تضعف سلامة القول وتفسد الذوق، وتجني عليها وعلى أهلها ويلات العجمة وطلسمات اللهجات واللغيات المبعثرة، وتجور في حق اللغة العربية الفصحى، كما قال الشاعر فؤاد الخطيب محذراً مما يواجه الأمة في لسان دينها ومصدر ثقافتها وموئل منعتها وعزتها (٢) .

١. من حاضر اللغة العربية، ص ٤٤.

٢. من حاضر اللغة العربية، ص ٤٩.

جاروا على لغة القرآن فانصدعت له القلوب وضجَّ البيت والحرم
فالقُدس باكية والشَّام شاكية وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم
والشرق يضؤل والأهواء تحزبه فليت شعري أعربٌ فيه أم عجم

كل ذلك كان في بدء النهضة العربية الحديثة. وفي أول الاتجاه الكلي إلى التعليم الشامل، ونشر المدارس العصرية في الوطن العربي، وكان الأمل هو أن ينتشر التعليم سيقضي على مصادر الضَّعف والامية والجهل المزمن في بلاد العرب ففتنتهي أسباب الشكوى وتقوى العربية الفصحى وتستعيد ماضيها الخالد بحاضرها الزاهر الذي يرجوه المحبون لها، وأن كل مدرسة تفتح ستصبح إشعاعاً للعربية الفصحى، وأن كل جيل يتخرج سيصبح أقوى من سابقه وأقدر على الإمساك بزمام العربية الفصحى وقيادة ناصية البيان الرائع في لغته الخالدة. وقد انتشر التعليم في عرض البلاد العربية وطولها والتحت به أجيال متتابعة من أبناء العرب، وتخرج من المدارس والجامعات مئات الآلاف من حملة الشهادات الجامعية وما دون ذلك من أنواع التأهيل العلمي. ولكن اللغة العربية الفصحى لا زالت موضع نظر ومحط سؤال ومصدر خوف وترقب، وكلما كثر الدارسون في المدارس والجامعات وكثر المتخرجون منها زاد الخوف من ضعف صلة هذه الأفواج من الخريجين بلغتها وبتقافتها وزاد الوجل والترقب من قدرة الأعداد الكبيرة والكثيرة التي تخرجها الجامعات والمعاهد ومؤسسات التعليم الشامل على فهم اللغة وممارستها الصحيحة للسان العربي المبين.

وأصبحت أغلب الأفواج التي تحمل شهادات التخرج لا تقيم لسانها الفصحى ولغتها الأصلية، وأحياناً تتكبر عنها وتتبذرها وراءها ظهرياً. ومن دوافع الغيرة

على مستقبلنا المعرفي ومستقبل أجيالنا برز أكثر من سؤال وقامت أكثر من علامة استفهام تشير إلى ما آل إليه تدريس اللغة العربية الفصحى من ضعف. وتتابع الندوات والمؤتمرات في أكثر من مكان وزمان، تناقش ظاهرة الضعف الذي يعترى قدرات أبناء العربية في فهم لغتهم. وقدمت دراسات كثيرة عن هذه الظاهرة الشاملة، وقد حاول كل مجتهد أن يطرح رأياً أو أكثر من رأي لعله يجد سبباً أو يهتدي إلى علاج ناجح. ولم تغفل الدراسات الكثيرة حال مدرسي اللغة وقدرتهم في تقريب اللغة إلى الطلاب أو العكس من ذلك.

وهنا لا بد من العودة إلى اللغة العربية التي تعيش اليوم واقعاً معزولاً عن وظيفتها، ذلك الواقع الذي يشبه واقع العرب والمسلمين الذي يعيشونه في سنواتهم الأخيرة وتمر بظروف مؤثرة فيها وتجتاز عقبات وعثرات كثيرة لا أظنها مرت بمثلها من قبل وتواجه مشكلات تعد من أخطر المشكلات التي تواجه المرابين والمعلمين والمسؤولين عن تنشئة الأجيال. فقد كانت اللغة الفصحى ولا تزال وعاء للتراث العربي الإسلامي بمختلف موضوعاته من دين وثقافة وتاريخ وغير ذلك، فحفظت ماضي الأمة العربية والإسلامية كله، وعنهما وفيها تلقينا الموروث الحضاري للعرب والمسلمين، وفي مقدمة ذلك تعاليم ديننا وتراثنا، على الرغم من أنها أمضت قروناً كثيرة وهي تقاوم مقاومة ذاتية تيار الأمية الجارف، وانطلاق عنان العامية في مجالات الحياة كلها - الخاصة والعامية - ومع ذلك بقيت الحصن الحصين والخيار الذي لا بديل له ولا تفكير في سواه. وكان من لوازم الضعف والتخلف اللذين أصابا ثقافة الأمة وأثرا فيها وفي لغتها أن نضجت روافد المعرفة

المتجددة وتجمدت حركة التعليم، فبقي الكتاب الخالد القرآن الكريم هو مشعل التوير الصامد يقرؤه العرب والمسلمون فتتطلق أقلامهم تحاكي رسمه وتتطق بلغته وتلتزم أسلوبه وتحاول التمسك بنصوصه حتى تحفظ منه ما يزيل طوق الأمية الذي يحيط بها، وبكل منشط من مناشط حياتها أما اليوم فإن الأمر بالنسبة للعرب والعربية مختلف كل الاختلاف، فليست الشكوى من أمية الإنسان العربي ولا جهله أو حرمانه من معرفة الكتابة والقراءة كما كان ذلك حاله من قبل النهضة الحديثة وثورة التعليم. ومع ذلك فقد مرت اللغة الفصحى بتحديات طارئة وأصبح وضعها مختلفاً عما كان قبل هذا العصر، وتمثل التحديات في:

١- العاميات:

لقد استمر طغيان اللهجات العامية على اللسان العربي الفصحى والتفكير والثقافة الموروثة والمكتسبة على الرغم من كثرة المدارس والجامعات ووفرة خريجها ولهذا الحال أسباب عدة منها:

أولاً: مناهج التعليم الحديث الذي تسير عليه خطط الدراسات الحديثة وتطبق في الجامعات العربية وهي مناهج تأخذ من كل علم بطرف فيتخرج طلاب هذه الجامعات بنفسي قليلة من المعرفة وحظاً أقل من اللغة العربية التي تبعتها مناهج التعليم عن مجال التفاعل الحي مع الدراسة الجامعية المؤثرة في المعرفة، فابتعد الطلاب الجامعيون في تخصصاتهم عن أقسام اللغة العربية وكلياتها وبعدوا عن أي علاقة لهم بلسان قومهم ولغتهم ودرّسوا موضوعات تخصصهم بلهجات عامية بعيدة

عن الصواب أو بلغات أجنبية، فيتخرج هؤلاء من الجامعات ويمنحون الشهادات التي تقرر نجاحهم وهم أميون في اللغة العربية الفصحى وآدابها وثقافتها ولسانها.

ثانياً : أنت حاجة البلاد إلى انتشار التعليم العام، وفتحت المدارس التي ابتلعت أعداداً هائلة من المدرسين لسد الحاجة وتحقيق رغبة الدول العربية في تعميم التعليم العام والتوسع الأفقي فيه فكان هؤلاء هم حملة الشهادات والمتخرجون من الجامعات أو من معاهد التأهيل ولا يوجد غيرهم مما اضطر المسؤولين عن التعليم إلى تعيينهم في وظائف التدريس وهم كما سلف شبه أميين في اللغة العربية وشبه أميين في الثقافة العامة، وفي هذه اعتمد على طاقم هائل من المدرسين أنصاف المتقنين وأشباه المتعلمين في تدريس اللغة العربية في كل المراحل مع أن حصيلتهم العلمية ضئيلة لا تساعدهم في تنمية مهاراتهم اللغوية أو مهارات طلابهم الذين يأخذون عنهم أسس المعرفة الأولية وأهمها فنون اللغة نحواً وصرفاً وإملاءً.

ثالثاً : الوسط الاجتماعي والبيئة وهذا عامل حاسم في علاقة الناس اليوم باللغة الفصحى وعلاقتهم باللغات العامية في البلاد العربية، بلا استثناء، فالعامية منتشرة انتشاراً واسعاً، وقائمة على كل لسان، يتحدث بها الخاصة قبل العامة والمتعلمون قبل غيرهم، ولا يعد أحد استعمال العامي اليوم في كل مجالات الحياة منكراً أو ممنوعاً، بل إن القاعدة العريضة من الناس، لا تجد حرجاً من الحديث بالعامية في كل المناسبات حتى في صالات الدرس. وقد ساعد استخدام العامية على انتشارها وسهولة دورانها على ألسنة الناس، الأمر الذي خفف حدة الشعور الذي كان في السابق يقع في النفوس إذا استعملت غير الفصحى، وأصبح الأمر شبه

مقبول عندما يتحدث المتحدث العامية أو يخطب الخطيب بها أو يدرّس بها المدرّس. ولا شك أن استعمال العامية دون حرج يضعف ملكة اللسان ويحدّ من انطلاقه إلى رحاب الثقافة العربية الخصبة ويقيدّه في المحيط العامي حتى يستمرئ الإنسان ذلك، ويقع في ازدواج كبير بين العامية التي تأتي على لسانه طوعاً والفصحى التي يجب أن يستعملها في تعليمه وتدريبه، ويقع دون أن يشعر في التجزئة الممنوعة في اللغة.

فالنص الذي يدرسه ويدرّسه يكتب بالعربية الفصحى والحديث يأتي على لسانه بالعامية أو الدارجة واللغة بطبيعتها. "لا تتجزأ ولا تكون صالحة للأدب دون أن تكون صالحة للعلوم، ولا تكون صالحة في الشارع دون أن تكون صالحة في التعليم ولا تكون صالحة في المرحلة الابتدائية دون أن تكون صالحة في المرحلة الجامعية"^(١). وهذه التجزئة هي حال اللغة اليوم فهي تواجه ازدواجية كبيرة وتجزئة في المجال وفي التخصص. فالشارع والبيت استولت عليهما العامية منذ قرون وبقي للفصحى التعليم ومجاله الرحيب إلى أن جاءت المناهج الحديثة بشمولية التعليم وجزأته إلى مراحل وتخصصات لا يشبه بعضها بعضاً فحصرت اللغة العربية في مجال ضيق وأقسام محدودة سميت باسم أقسام اللغة العربية وجاءت الأقسام والتخصصات في العلوم الإنسانية والطبيعية فأعفتها من استعمال اللغة العربية الفصحى، امتدت العامية إلى التعليم وإلى كل تلك التخصصات، واحتلت مساحات هامة فيها، ما كانت تطمح العامية أن تصل إليها من قبل ولكي

١. فلسفة اللغة، ٢٨٢.

أبين ما أقصده بهذه الفقرة فإن هناك جامعة أضربها مثلاً في قلب الجزيرة العربية فيها (٣٧٠) ثلاثمئة وسبعون قسماً أكاديمياً منها قسم واحد تدرس فيه اللغة العربية وآدابها، وعليكم المقارنة وتحديد النسبة، بل إن هناك ما هو أسوأ من ذلك هناك أكثر من جامعة من جامعاتنا لا يوجد فيها قسم واحد للغة العربية، وقد أصبحت لغة التعليم مقسمة إلى لغتين ليست اللغة العربية واحدة منها. وإنما صارت لغة التعليم في الجامعات والمدارس العربية منقسمة إلى لغات أجنبية نصاً موضوعاً، أو إلى اللهجات العامية نصاً في الحديث والمشافهة والحوار والإلقاء والسؤال والجواب في الوقت الذي يبقى المكتوب باللغة العربية الفصحى مسطراً في مراجع الدراسة وكراريس الطلاب، وكل نصيب الفصحى هو الحد الأدنى من القراءة عندما يضطر الطالب أو مدرّسه إلى العودة إلى النص المكتوب، فيقرأ منه موضوع الشاهد أو مجال الدرس. وقد تكون قراءته بين الفصحى والعامية أو في العامية في أغلب الأحيان. أما إذا وضع المدرّس أو الطالب الكتاب من يده فإن لغته وجديته ومحاورته سرعان ما يعود ذلك كله إلى العامية والعجمة.

واللغة كما يحدد وظيفتها اللغويون" (١).

"ليست وسيلة للتفاهم أو للتواصل، بل اللغة هي أنها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم هي أنها جزء من السلوك الإنساني، إنها ضرب من العمل".
واللسان الذي يركن إلى العامية ويتحدث بها ويملاً وجدانه بمفرداتها وجملها وتراكيبها وأشعارها وأمثالها وثقافتها أني يكون له بعد ذلك نصيب من اللغة الفصحى أو حظ من

١. اللغة والمجتمع، ص ١٧.

جودة أساليبها وبيانها وبلاغتها وإيجازها الذي لا يماثله إيجاز في غيرها من اللغات واللهجات. واستعمال اللغة يعد مهارة واكتساباً تزكو باستعمال الفصحى كلما كثر تكرار اللغة الفصحى على لسان المتكلم وأذن المستمع.

كما أن قدرة متكلم اللغة تنمو نمواً سريعاً كلما تعهد بها الإنسان وحافظ على سلامتها من اللحن وبعد بها عن شوائب العامية. ولاشك أن لغة التدريس يجب أن ترقى إلى مستوى اللغة الفصحى المؤثرة في المتلقي. أما استعمال العامية في التدريس والمحادثة بها فيحول دون تنمية المهارة اللغوية الفصيحة ويقفل من شحذ السليقة ويؤثر في قدرة المتكلم تأثيراً سلبياً وهذا حال العربية اليوم. ومن هذا الحال الذي آلت إليه اللغة العربية وآل إليه منهج التعليم نشأت معضلة اللغة مع مدرسيها وطلابها نتيجة اتصالهم المباشر بالعامية والحديث بها وبالكلام العامي الذي لا ينقطع على ألسنتهم، مما يحول ملكاتهم اللغوية عن الفصحى وعن آدابها وجمال عباراتها وسلاسة أسلوبها والتفقه في نحوها وصرفها إلى ملكات عامية ولهجات محلية متعددة ومختلفة وضعيفة ركيكة، والعامية كما يعرف الجميع ليئة لا يبذل المتكلم فيها جهداً يذكر، وإنما ينطلق بها لسانه وتسبق على ملكاته اللغوية فيستعملها عفواً الخاطر دون أن يشعر أنه يخالف قواعد اللغة أو يخطئ فيها، ولأن طبيعة الإنسان تكره التحديد وتنفر من الانضباط الذي يوجّه اللغة المقننة فإن مدرسي التعليم العام والجامعي على حد سواء يهربون من قيود الفصحى وقوانين النحو فيجدون في العامية مندوحة تعوض النقص الذي يشعرون به هؤلاء. (١) أمّا الضعفاء

١. الفصحى ونظرية الفكر العامي، ص ٩٦.

في التحصيل العلمي الذين أصبحوا يحملون شهادات تقرر نجاحهم من المدارس العامة والجامعات وتضعهم شهاداتهم ومراكزهم الوظيفية في صفوف المتقنين في حين أننا نراهم لا يستطيعون التعامل المتقن الذي يرضونه باللغة العربية، ولا يستقيم لهم قياد اللغة ولا يرضون عن واقعهم وأساليبهم في فهمها. فانحاز هؤلاء إلى العامية هرباً من وصمة الجهل بقواعد العربية الفصحى وعدم إحسانهم لها، مع أنهم محسوبون من المتقنين الذين يفترض فيهم أن يجيدوا لغة أمتهم، وهم بذلك يجدون في العامية بلا شك مخرجاً من المواقف الحرجة التي لا يرضونها لأنفسهم، وكم من متحدث سمعناه وهو يقدم بين يدي حديثه الاعتذار عن أخطائه في اللغة ويلتمس من السامعين العذر في ذلك.

إن اللغة ليست أداة اتصال فحسب، ولكنها محتوى فكر ورصيد ثقافة، والعامية واستعمالها دليل "تفكك اجتماعي ثم تفكك فكري لغوي منحدر وهذا هو منشأ اللهجات العامية المحلية تتجلى أعراضاً مرضية لا تعرفها الأمة في صحتها وقوتها ووحدتها" (١)

ولا تزال هذه الأعراض مستمرة دائمة إلا إذا أخضعت للعلاج الدائم واتخذ الحزم القاطع في سبيل وقف أسبابها وعوامل انتشارها.

١. من حاضر اللغة العربية، ص ١٦٠.

أثر ذلك في تحصيل الطلاب :

كان ضعف المدرّس هو أساس ضعف الطالب الذي أخذ اللغة على يد مدرس ضعيف، فوضع الضعف من بدء تعلمه مع مدرس يلقنه العامية في شرحه وحديثه وكلامه ويبعد عن الفصحى. والطفل بطبعه وفي مراحل تعليمه الأولى مقلد ماهر لأستاذه فهو يدخل المدرسة في سن الاكتساب والتكوين اللغوي، والمثل يقول: " العلم في الصغر كالنقش في الحجر " ودارسو اللغات الحديثة يرون أن " ثمة وجهاً آخر غريزياً من أوجه اللغة يتمثل في أن هناك فترة حرجة لاكتساب اللغة، فقدرة الإنسان على التعلم تبلغ ذروتها في فترة تمتد تقريباً بين السنة الأولى والسادسة من عمر الإنسان... حيث يبدو أن تعلم اللغة تحدده عوامل فطرية أكثر من أي شكل من أشكال التعليم البشري" (١).

وهي مرحلة خطيرة في اكتساب اللغة مهملّة في عمر الطفل العربي وقلماً ينال الأطفال العرب فيها أي اهتمام ينمّي قدرتهم على الاكتساب الفصيح لكنهم - للأسف - في هذه السنين لا يسمعون غير العامية لغة البيت ولغة الأتراب في الشارع. أمّا في آخر هذه المرحلة التي حدّد فيها ترسيخ ملكة الاكتساب السريع فإن الطفل ينتقل إلى أولى الخطوات المقننة للاكتساب المعرفي، ويبدأ الدراسة المنتظمة ويدخل عالماً آخر يتشوق فيه إلى كل جديد وأهم ذلك اللغة التي يتوقع أن تكون لغة مختلفة عن لغته في البيت والشارع، ويبدأ في هذه المرحلة بالتقليد الواعي لأستاذه أولاً وزملائه الذين يلتقي بهم لأول مرة، وقد يكون فيهم من سبقه بعام أو عامين إلى

١. اللغة والحياة، ص ١٠٦.

الدراسة فلا يجد غير العامية، ومنظرو اللغات الحديثة يرون أنه " من المرجح أنه لا توجد فترة في تاريخ البشرية على الإطلاق لم يُعترف فيها بأهمية المحاكاة في اكتساب اللغة بالتعلم فضلاً على سائر النظريات الحديثة المتعلقة باكتساب اللغة التي تتفق على أن تنسب للمحاكاة دوراً بارزاً في جزء ما من أجزاء عملية اكتساب اللغة ولا يستثنى عصرنا الراهن من ذلك" (١) .

ولعل هذا الجزء الذي أشار إليه النص السابق هو موضع مشكلات اللغة الفصحى إذ لا يكون في صالحها حيث تكون عملية الاكتساب من لسان يلوك العامية ويتحدث بها فيصير اكتسابها سهلاً ميسوراً على الطفل ثم يعود إلى البيت ليسمع الجزء الآخر فلا يكون له مناص من الإغراق في العامية في المدرسة والبيت. ومرحلة الاكتساب هذه تمتد - كما يقول المتخصصون في تاريخ اللغات - مع نمو الطفل حتى يصل مرحلة البلوغ أي حتى يكمل التعليم العام كله ويصبح على مشارف الجامعة كما يقرر النص الآتي " إن اكتساب الفهم بالتعليم يجب أن يسبق اكتساب التكلم بالتعلم... هذا على الرغم مما نعرفه جميعاً من أن قدرة الطفل على فهم لغته تسبق دائماً قدرته على تكلمها وهو موقف يستمر إلى سن البلوغ... ويمكن النظر إلى هاتين القدرتين الإضافيتين في أحسن الأحوال بوصفهما امتدادين لبناء اللغة الهرمي فالأولى امتداد لمستواه الدلالي الأعلى والثانية امتداد لمستواه الصوتي" (٢) .

١ . اللغة والحياة الطبيعية البشرية، ص ١٢٤.

٢ . اللغة والحياة، ص ١٣٠.

وليس اكتساب اللغة في هذه المرحلة إرادياً بل تلقائياً يصير جزءاً من تكوينه اللغوي فلو كان اللسان الذي يسمع الطفل في الدراسة منذ البدء كان اللسان الفصيح لتغير تكوينه اللغوي وحسن اكتسابه اللغة التي يتحدثها مدرسه فهو بطبيعة سنه وصفته الطارئة مقلد ويود أن يعود إلى البيت بشيء جديد يختلف عما ألفه فيه من نمط الحديث وماعرفه من كلمات وجمل ومفردات ولهذا السبب يقول تشومسكي (١) :

"من أهم الحقائق التي تلفت النظر في اكتساب اللغة عند الطفل الدقة الفائقة التي يقلد فيها كلام من حوله فتتجاوز دقة التفاصيل الصوتية هذه ما يستطيع البالغون إدراكه إن لم يملوا بتمرين خاص... فمن الواضح أن الطفل يسمع من غير وعي التفاصيل الصوتية الدقيقة التي ستصبح جزءاً من معرفته وهي التفاصيل التي لن يكون باستطاعته الإحساس بها عندما يكبر " .

إن هذه القدرات عند الأطفال وهذه المواهب التي ولدت معهم لم تستطع مناهج التعليم في العالم العربي ولا الجامعي توظيفها توظيفاً صحيحاً يخدم مستقبل الطفل ومستقبل اللسان العربي الفصيح، بل انحدرت وانحرفت إلى مهابط العامية على أيدي مدرسين لا تمكنهم قدراتهم وتأهيلهم على أن يقدموا ما يشوق الطفل ويجذبه إلى التعلق باللسان الفصيح، وإنما يسمع ما يكرر عليه في كل درس في وعاء العامية الضعيفة التي ترسبت في حسه اللغوي وأبعده عن سماحة الطفولة التي "تميل إلى الدفق في الخارج بعفوية سمحاء، فمن الخطأ والحالة هذه أن نضعها في غير مجرى السليقة وفي غير العفوية... ونعرضها للكدر وللشد من أخطائنا التربوية"

١ . اللغة ومشكلات المعرفة، ص ٣٥.

وإذا كانت العامية تأخذ على المدرّس وعلى الطالب منافذ الطريق ويكون الحوار والكلام بها فإنه من غير الممكن أن تولد معجزة تجعل هؤلاء الأطفال بعد إكمال التعليم العام أو حتى بعد التخرج من الجامعة ومن أقسام اللغة العربية يقلعون عما عهدوه في كل سني دراستهم وتلقوه في مناهج تعليمهم، وإن تجاوز الطفل للمراحل الحرجة في اكتساب اللغة وهو يستمع إلى عامية غالبية ويدرس في لغة عامية، ويعيش وسطاً عامياً حُكِمَ عليه في أن يبقى على هذا الحال وفي ذلك المحيط المتلاطم برطانة العامية وثقافتها. وبذلك يصدق عليه الرأي الذي يقول إن "الظاهرة الخطيرة لأزممتنا اللغوية هي أن التلميذ كلما سار خطوة في تعلم اللغة العربية، ازداد جهلاً بها ونفوراً منها وصدوداً عنها، وقد يمضي في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط فيخرج من الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه، بل قد يتخصص في دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها، ويعيبه مع ذلك أن يملك هذه اللغة التي هي لسان قوميته ومادة تخصصه، كل درس يتلقاه أبنائنا في لغتهم العربية ينأى بهم عنها. ونرى اللغات الأخرى يتعلمها أبنائنا في مدارسهم العامة فيكسبون من كل درس معرفة جديدة بأسرار لغتهم" إن ظاهرة الشكوى من ضعف تحصيل الطلاب للغات وضعفهم في تعلمها ظاهرة عامة لا تنفرد بها اللغة العربية الفصحى من بين اللغات ولا ينفرد بها الطلاب العرب من بين الأمم. إلا أن كل لغة يحرص أهلها على بقائها واستمرارها يراودهم الخوف عليها، فيحتاجون في كل حين إلى إصلاح ما يطرأ من ضعف أو نقص أو تقصير يتلمسون أسباب ضعفها ويسعون بين فينة وأخرى في تطوير مناهجها ووسائل

تعليمها وطرق تدريسها، ويستعملون أحدث التقنيات في سبيل إيضاح غامضها وتقريب بعيدها إلى الأذهان ويرتقون إلى مكانتها التي يودون أن تصل إليها.

إذا كانت اللغة كائناً حياً متطوراً فإنه يجب تعهده بأسباب الحياة ومداومة تحسس ضعفه أو شكواه وعلاج ما يؤثر على سلامته وقوته، ولا أشك أن اللغة العربية في عمرها الطويل وموروثها الضخم وحاضرها أو بالأصح حاضر أهلها اليوم، كل ذلك يحتاج إلى أطباء مهرة ونطاسيين عابرة. كما أنها تحتاج إلى عاطفة رؤوم تحبها وتعيد لها مكانتها في نفوس أبنائها والثقة التي كانت لها وكانت زادا في رحلتها الطويلة ولا تزال تحتاج إلى هذا الزاد زاد المحبة وزاد الثقة وزاد الإيمان بأنها الموحد الذي بقي للعرب والجامع الذي لم تفرقه الأهواء، والله الحمد، حتى هذه اللحظة.

وأود أن أكون متفائلاً ومستبشراً في أن حاضر اللغة العربية الفصحى خير من ماضيها القريب وأنها في سبيل النهوض المتجدد، وما عرضته هذه الورقة ما هو إلا من قبيل الحرص على اللغة وتحسس الطارئ في حياتها الغريب عليها ومن ثم القضاء عليه وإبعاده حتى لا يؤثر عليها.

وحالنا الذي نشكو منه ليس خاصاً بنا وحدنا بل هو عام في كل الأجيال المعاصرة التي نعرف بعض شكواها من ناشئتها كما نشكو نحن، فالشكوى العامة من الضعف الظاهر على الأجيال المعاصرة في اكتساب اللغة لها أسباب كثيرة منها في رأيي ما نسميه إجبارية التعليم أي أن جميع الأطفال فيما بين سن السادسة والسابعة عشرة يلزمون بالدراسة ويرغمون عليها كما هو معروف، ولهذا فإن نسبة

الضعف في تحصيل الطلاب أمر معقول إذا أخذنا بالحسبان الأعداد الهائلة التي تجبر على دخول المدارس العامة في هذه السن. وإذا أخذنا نسبة المتميزين وهم سيكونون قلة أمام الأعداد الكثيرة غير المتميزة، كان فارق النسبة هو ما نحكم عليه بظاهرة الضعف العامة في كل الأجيال وفي جميع اللغات وهو أمر مقبول ومعقول أيضاً. ولكن موضوع الشكوى وظاهرة الضعف الذي نشكو منه نحن العرب خاصة في اللغة العربية الفصحى ليس الضعف فحسب ولا تحصيل الطلاب بشكل عام وهو ما يشاركنا فيه العالم من حولنا بل أداة التعليم ووسيلته، فنحن نعلم اللغة العربية الفصحى بالعامية وبين الفصحى والعامية ما تعلمون من الفوارق. إذن وسيلتنا في تعليم اللغة العربية الفصحى هي موضوع النقاش وهو ما أرى أننا مطالبون بأن نبحث له عن حل ونجتهد في البحث. وأظن أن تحقيق شيء مما يأتي يساعد على ما نحن في سبيل بحثه وعلاجه.

أولاً : عدم التسامح في استعمال اللهجة العامية في التدريس وعدم الاستئمامة إلى سهولتها وعدم اتخاذها أداة للمخاطبة في التعليم حتى لا تفقد اللغة العربية الفصحى مكانتها في نفوس أبنائها ويضعف احترامها، ويصير البديل العامي والدارج مقبولاً أو شبه مقبول أو متفقاً عليه ضمناً أو مسكوتاً عنه، وإذا حصل ذلك لم يعد للعربية الفصحى مجال ولا احترام، وقد يتهاون بحقها المدرّس والطالب وتفقد عندئذ القيمة العلمية التي كانت لها في نفوس الناس والاحترام الذي وقر لها على مدى التاريخ ومع كل الأجيال الماضية وفي كل الحقب الخوالي.

ثانياً : النظر في وضع مدرسي التعليم في مناهج الكليات التربوية ومعاهد التأهيل التي تخرج هؤلاء المدرسين، والاجتهاد بوضع المنهج الملائم الصالح لما يعدون له، والتركيز على تنمية قدرة الخطاب والتكلم بالفصحى، واستظهار قدر صالح من آثار الفصحى من شعر ونثر حتى يعين ذلك المدرسَ على الاقتداء بما يحفظ عندما يتحدث إلى طلابه أو عندما يستعمل العربية في لغة التدريس ويكون التعليم الجامعي امتدادا لما سبقه من بداية يفترض أن تكون قوية.

ثالثاً : انتقاء المتميزين من المدرسين والمبرزين منهم وتكليفهم بتدريس اللغة العربية وآدابها ومتابعتهم بعد التخرج وتنمية مواهبهم ومعارفهم وتعهدهم على مدى سني الدراسة مهما طال الزمن بهم وتحديث معلوماتهم في كل عام.

رابعاً : المطالبة الجادة بجعل لغة التدريس هي اللغة الفصحى في جميع مراحل الدراسة من الابتدائية حتى الجامعة، واستعمال اللغة الفصحى في كل التخصصات مهما كان موضوع التخصص وفي أي مرحلة كان.

خامساً : تنبيه أهل الثراء والجاه الذين بدأوا ينشرون باللغة العامية إلى خطورة ما يقدمون عليه عندما يكتبون دواوين الشعر العامي ويطلبون من الناس دراسة تلك الدواوين والكتابة عنها وتحليلها والثناء عليها والتمجيد لها. ولاسيما أثرياء الخليج والجزيرة العربية، وبيان واجبهم نحو احترام لسان قومهم ومكان لغتهم العربية. وقطع دابر التفكير في تدريس مادة ما يسمونه بالأدب الشعبي في الجامعات والمؤسسات العلمية.

سادساً : توجيه نداء للحكومات العربية بوجوب المحافظة على سلامة اللغة الفصحى واحترامها واتخاذها لغة الدواوين والمخاطبات الرسمية في كل المجالات، وحمايتها من مزاحمة اللغات الأجنبية.

سابعاً : مخاطبة رؤساء تحرير الصحف والمجلات في الدول الخليجية والجزيرة العربية خاصة، وبيان خطر ما يحدث من تخصيص صفحات للغة العامية في مطبوعاتهم ونشر ذلك على القراء. وبيان أن واجبهم القومي والوطني ووظيفتهم التثقيفية في المجتمع ورسالتهم في تقوية أواصر وحدة أمتهم كل ذلك يحتم عليهم احترام اللغة العربية الفصحى، ورفع مستوى ذوق القارئ وتنمية مداركه اللغوية والراقي بها إلى المستوى الذي يليق بها وأن يبين لهم أن إلهاء القارئ بالصفحات العامية وإشغاله بما تنفث من سموم يُعدّ تخلياً عن مهمة الصحافة الوطنية ونقصاً في إدراكها لواجبها.

اللغات الأجنبية

اللغة الإنجليزية مثالا :

يأخذ مدُّ اللغة الإنجليزية والحديث عنها أبعاداً ثقافية ومعرفية ولغوية حادة هذه الأيام فضلاً على أبعادها السياسية والاقتصادية والفكرية التي أخذت حيزاً واسعاً من حياة الشعوب المعاصرة وليست الشعوب العربية وحدها، إلا أن ما يجب أن نهتم به اهتماماً كلياً هو ما يخصنا نحن العرب منها لأنها أصبحت هي الوعاء الثقافي الذي تصب فيه المعلومات المعاصرة، وهي أي اللغة الإنجليزية الناقل والموصل القوي لخطاب الغرب الناطق بها الذي بدأ يأخذ من اهتمامنا نحن العرب شيئاً كثيراً في كل مجالات الحياة، وفي كل المناهج التي يسير عليها تعليمنا. لهذا السبب سنتناول أثر اللغة الإنجليزية على تفكيرنا وعلى ثقافتنا وعلى لغتنا العربية بوصف اللغة الإنجليزية هي لغة القوي القادر ومن طبيعة الأشياء أن يؤثر القوي على من هو دونه بالقوة والغلبة، واللغة وهي نشاط إنساني مؤثر ومتأثر تخضع لهذا القانون. وقد بدأت اللغة الأجنبية ترحف على مساحة اللغة العربية في بلدانها وتقتسم نصيبها من مناهج التعليم العام والجامعي مما دفع منظمة اليونسكو إلى التعبير عن قلقها لما تتعرض له اللغة الفصحى من تهيش وإقصاء، وقد نبهت في تقريرها إلى ما تراه من أثر على مستقبل اللغة فقالت :

"إنَّ البلاد العربية تعاني من أزمة في الهوية نتيجة للمتغيرات التي طرأت في التركيبة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية العربية، وقد وضعت برامج عديدة للمحافظة على اللغة العربية كهوية للأمة بالإضافة إلى هوية المجتمع الوطنية والدينية

لكن التحديات كانت كثيرة مما جعل اللهجات المتداولة " العامية " هي المسيطرة في واقعنا العربي وتبتعد شيئاً فشيئاً عن الفصحى التي سوف تصبح مثل اللغة اللاتينية يوماً ما إذا استمرت الحال على هذا الوضع المؤلم والمحزن أيضاً، وقد عزز تراجع اللغة العربية الفصحى عدم وجود آليات فعالة لنشرها ودعمها. هذا بالإضافة إلى انحسار استخدامها في قلة من النخبة المتخصصة والتي تهتم بها من أجل المعيشة كوظيفة دون القيام ببحوث جادة من أجل إعمالها في الحياة اليومية والتعليمية بشكل صحيح، ومن أكبر المشكلات التي واجهتها اللغة العربية عدم وجود توحيد للمقررات ومحتوياتها في البلاد العربية واجتهاد كل قطر عربي على حدة بوضع هذه المقررات كما أن الإعداد الأكاديمي والمهني لمعلمي ومعلمات اللغة العربية خاصة في التعليم العام متدن للغاية لعدم تأهيل المعلمين تأهيلاً مهنيًا لخدمة هذه اللغة، والاكتفاء بإعدادهم تخصصاً، وهذا الإعداد لا يتناسب مع مستوى التحدي الذي يواجه اللغة حتى إنه ينظر إلى المتحدث بالفصحى أحياناً بشيء من الريبة وأحياناً بالاستخفاف، ولمواجهة هذه المشكلة التي تستهدف هوية الأمة ومصدر عزتها وكرامتها فإنه من الضرورة الملحة للغاية أن يتم القيام بأعمال جادة لمواجهة هذه الكارثة اللغوية والمسارة في إنقاذها من خلال عمل برامج متعددة ومتنوعة على مستويات عدة ضمن استراتيجية دقيقة تنطلق منها الأمة العربية لمواجهة هذا التحدي الموجّه لطمس الهوية وتهميش ثقافة الأمة وتاريخها ."

هذا النقل عن رؤية مؤسسة تربوية مهمة بحاضر اللغة العربية يُعيدنا إلى تذكر محاولات كثيرة منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين حتى اليوم حين

شعر المهتمون باللغة والثقافة العربية أن هناك مزاحمة فاعلة وقوية للغة الفصحى ذات شقين أحدهما: العاميات المنتشرة في البلاد العربية نتيجة الجهل والامية التي سادت العالم العربي منذ زمن بعيد، وثانيهما: مزاحمة اللغات الأجنبية لها في موطنها وعلى ألسنة أبنائها. نشأت عن شعور صادق بالحاجة وتصميم على أهمية العمل من أجل مستقبل اللغة العربية الفصحى، ولكن التصميم وتلك المحاولات لم تثبت أمام التغيرات الكبيرة التي يواجهها العالم العربي اليوم حيث صار الحديث عن عامل اللغة العربية والأجنبية يأخذ أبعاداً كثيرة، ولعل لنا وقفة قصيرة مع بعض الآراء التي تتادي بجعل اللغة الإنجليزية لغة التعلم في الجامعات العربية والفائدة التي يريدونها من هذه الرؤية. إذ يعتقد بعض القائمين على هزيمة هذه المؤسسات التعليمية أن مستقبل الذين يجيدون اللغة الأجنبية هو الأفضل ويظنون أن اللغة الإنجليزية تحقق لخريجها مهارات لا تتحقق في غيرها، ولا بد أن تكون واردة في أذهان الذين يرون هذا الرأي الحثيث الآتية:

أولاً : الاستفادة من علوم العصر التي تعد الإنجليزية هي لغتها الحية.

ثانياً : إن اللغة الإنجليزية في رأيهم هي لغة العلم والاختراع والطب وغيره من العلوم الحديثة.

ثالثاً : انتشار اللغة الإنجليزية السريع في العالم العربي الذي أصبحت صلاته قوية بالغرب وحاجته إلى تعلم اللغة الأولى فيه مهمة للغاية.

وقبل أن أبدأ بعرض رأبي الشخصي فإنني أؤكد عن قناعةٍ وعلم يقين أن من يرون هذا الرأي هم أبناء العربية وأحفاد الأمجاد من أبنائها، وانتمأؤهم إلى الأرومة العربية لا يساوم عليه أحد، والعربية لغة وتاريخاً قناعة نفوسهم وإراثاً في تاريخهم ومجداً لهم. إذن لن أتحدث عن هذا الجانب المسلم به وسأنتقل إلى الرأي العلمي فيما يطرح من آراء حول الفائدة المرجوة من تدريس العلوم باللغة الإنجليزية أو تدريسها باللغة العربية.

أي لغة تجعل الفهم سهلاً:

لا أتحدث هنا عن اللغة العربية وحدها ولكنني سأتحدث عن المصلحة العلمية فيما إذا كان التلقي يتم بلغة الإنسان الأصلية أي الأم كما يقولون أو بلغة أجنبية عليه. وأي الطريقتين أنفع للطالب تأهيلاً وتحصيلاً، أهي الأجنبية أم هي اللغة الأم، وأيهما أقدر على تمكين الإنسان من ممارسة تخصصه بعد تخرجه بكفاءة ومقدرة أهي اللغة الأجنبية التي يتعلمها بعد تجاوزه سن اكتساب السليقة اللغوية. فيدرس بها علومه في محيط محدود في صالات الدراسة وحدها، وهل هذه اللغة التي لا يعرفها إلا في قاعات الدرس ولا يستعملها في الخارج أقدر على تكوين الطالب ثقافياً ولغوياً أو تلك اللغة التي رضعها من المهد في بيته وسوقه ومع أصدقائه وفي كل لحظة تفكير لا يفكر إلا بها وهو في كل جوارحه يستشعرها، ترى أيهما أقدر على تفتيق ملكات الإبداع لدى الدارسين؟ لا شك بأن هذا لا يتحقق للإنسان إلا بلغة السليقة والطبع. وللذين يرون فائدة من دراسة اللغة الإنجليزية والذين يدافعون عن تدريسها سأعرض أمثلة من التجارب السابقة قد

نستفيد منها قبل الإقدام على تجربة قد تستمر سنوات ثم نقشل بعد ضياع عدد من السنين وعدد من الخريجين وعدد من ملايين الأموال التي سيحتاجها إعداد المناهج وغيرها في الجامعات العربية وفي المدارس ومؤسسات التعليم الأخرى.

اللغة والإبداع:

إن التعليم بأي لغة ممكن إذا أجادها المرء وأحسنها بعد أن يبذل جهوداً غير عادية في تعلمها إذا كانت لغة الدراسة غير لغته الأصلية، أما الإبداع العلمي المحض والاختراع فإنه مستحيل إلا باللغة التي نشأ عليها المرء وتعلمها في الوسط الاجتماعي الذي يتعامل معه ولا يمكن أن يبدع أحد في لغة أخرى غير لغته مهما بلغ من إجادتها وإحسانها إلا أن ينقطع لها ويعيش أجواءها كاملة وفي بلادها ومع أهلها^(١). لأن الإبداع تصور كامل لما يريد الإنسان عمله والتصور لا يكمل، ولا يصح باللغة وحدها وإنما بإيحاءاتها ومضامينها وظلالها وخيالها، فالإبداع يكون صورة ذهنية في عقل المبدع ينمو ويكبر حتى يتجسد في الإبداع نفسه أياً كان نوعه، ولا يمكن أن تكتمل الصورة الذهنية الصحيحة للأشياء إلا في اللغة التي يتكلمها الإنسان ويعيش في بيئتها كاملة. ومتعلم اللغة الأجنبية مهما بلغ من إجادتها لا يمكن أن يرقى إلى إدراك مضامينها ودلالاتها الخاصة، ذلك مستحيل بالتجربة والبرهان وهو كثير حي مشاهد.

١. [لا ينبغي أن نتخذ الأمثال من تفوق العقول العربية التي ظهرت في الغرب، واستطاعت أن تبرع وأن تثبت نجاحها وتفوقها في البيئة، فقد يكون لانقطاعهم وانشغالهم بما فرغوا أنفسهم له، والظروف المحيطة، كل ذلك ربما كان له الأثر فيما وصلوا إليه].

الجهد :

إنَّ متعلِّم اللغة الأجنبية يبذل في فهم قدر معين من المعرفة أضعاف أضعاف الجهد الذي يبذله في فهم القدر نفسه من المعرفة في لغته الأصلية ويبذل في محاولة الاستيعاب أكثر من ذلك، وهذا الجهد الذي يبذله في تعلم اللغة الأجنبية سيكون على حساب وقته وطاقته التي يهدرها في بذل جهد مضاعف لو استعمل بعضه في تعلم لغته الأصلية لأبدع بها كل الإبداع وكان فهمه لتخصصه دافعاً إلى تمثله وإحسانه.

البيئة واللغة :

اللغة تكوين بيئي والاستفادة منها تكوين علمي وبيئي أيضاً ولا يمكن الاستفادة التامة إلا في اجتماع هذين العنصرين البيئة واللغة. ولن تكون اللغة الأجنبية لغة بيئة مهما بذل في توطينها وتعلمها. والإجادة لا بد أن تكون في لغة البيئة التي لا تناقض بين مدركات التحصيل بها وممارسة الحياة اليومية الدائمة لها وإذا خلت مناهج تعلم اللغة من بيئتها نقصت القدرة على تمثيلها وإحساسها والاعتماد عليها في الاكتساب المعرفي السليم.

تجربة حية :

سأضع أمامكم تجربة من الواقع دليلاً على أن اللغة الأجنبية لا يمكن أن تنهض بقدرات الذين يكتسبونها بالتعلم في المدارس والجامعات في بيئة غير بيئتها وفي غير محيطها، والشاهد على ما أقول أن هناك في المحيط المحلي العربي جامعات اعتمدت اللغة الإنجليزية منذ تأسيسها في كل تخصصاتها، وهناك جامعات

اعتمدت اللغة العربية في التخصصات نفسها التي اعتمدها الجامعات الأخرى وكلها في دول الخليج ،وقد مضى على هاتين التجربتين أكثر من ثلاثين عاماً. والثابت من التجربة أنّ خريجي الجامعات التي تدرس العلوم باللغة العربية هم الذين حققوا تميزاً في علومهم الطبيعية وأظهروا قدرات جيدة في الفهم والاستيعاب والإدراك الواعي لتخصصهم. أما خريجو الجامعات التي تدرس العلوم باللغة الأجنبية فقط فإني لا أعرف خريجاً منهم تجاوز في تخصصه الأداء الروتيني اليومي والعمل الوظيفي البيروقراطي، هذه تجربة من واقع جامعات المنطقة قد توفر علينا المجازفة الجديدة في خوض تجربة قد يطول انتظارها ويطول الحكم عليها بالفشل أو النجاح.

مثال من الواقع :

يزعم بعض من لا يعرف طبيعة اللغة أن اللغة الفصحى مسؤولة عن الضعف في التحصيل، وسأدلل على بطلان ذلك بأمثلة تعرفونها ويعرفها الذين يريدون أن يجعلوا التدريس باللغة الأجنبية معالماً هذا الضعف. دول غرب إفريقيا وشمالها بما في ذلك الدول العربية (الجزائر والمغرب وتونس وموريتانيا) كلها تدرس في مدارسها وفي جامعاتها باللغة الفرنسية وهي اللغة الأولى في هذه الدول، والمغاربة والجزائريون يجيد المتعلمون منهم الفرنسية ويحسنونها تحدثاً وكتابة مثل الفرنسيين ومع هذه الإجادة للغة لم يحدث فيها تقدم يذكر ولا أصبحوا مثل أقرانهم الفرنسيين ولا قاربوا ذلك، والسبب هو الازدواج الثقافي والذهني بين الفرنسية لغة التعلم وبين البيئة العربية. فقد خلق انعدام التوازن نوعاً من التشتت الذهني فتولد

عن ذلك نوع من الازدواج الثقافي الذي لا يساعد على الإبداع بل يساعد على انقسام الشخصية العلمية للطالب وتفكك الإدراك وتشتيت الذهن بين متناقضين ومتعارضين، لغة الطالب الأصلية، واللغة التي يكتسبها بالتعلم فلا هو يفكر تفكيراً كاملاً بلغته الأصلية ولا هو منقطع إلى لغة التعلم التي يتعلم بها علومه في المدارس والجامعات.

الوضع العام:

ليست تهمة الضعف في التحصيل موجهة إلى اللغة أي لغة، إنها موجهة إلى الوضع الحضاري والثقافي العام، وسبب الضعف خارج عن إطار اللغة متصل بأسباب أخرى كثيرة، ولو نظرنا إلى جميع دول العالم اليوم لوجدنا الشكوى من ضعف الطلاب باكتساب اللغة هو السائد في جميع الدول حتى الغربية منها.

أهمية اللغة الثانية:

تعلم اللغة الأجنبية في غاية الأهمية ويجب أن يكون تعلمها في الجامعة لازماً إلا أنه لا يجب أن تكون لغة التعليم لأن ذلك سيحدث انقساماً ثقافياً بين مجتمع الجامعة وخريجها. ولن يحصل الخريجون على المعرفة المرجوة بلغة أجنبية يستعملونها في صالات الدراسة أو العمل وتنقطع حاجتهم إليها في المحيط الاجتماعي الذي يجبرهم على التكلم بلغة أخرى غير لغة التعلم وتبقى لغة الدراسة حتى تضمحل وتموت مع مرور الزمن وبُعد المتخرج عن الممارسة العلمية للغة الدراسة الأجنبية.

الرأي :

والذي أرى، وأرجو أن نستفيد منه هو أن يبقى التدريس باللغة العربية، وأن تضع بعض المؤسسات التعليمية برنامجاً موازياً ومكثفاً باللغة الإنجليزية، هذا البرنامج يُمكن الخريجين من الاطلاع على العلوم الضرورية في اللغة الإنجليزية ويساعدهم على الاتصال بمصادر المعلومات ويحقق ما تهدف إلى تحقيقه. وما هو غني عن الذكر أن العلوم الطبيعية العصرية لم تكن باللغة الإنجليزية وحدها حتى نضطر للتدريس بها، فهناك اللغة الفرنسية وهي من اللغات ذات السبق العلمي ثم هناك اللغة الألمانية وغيرها من اللغات، ومن المستحيل أن يلم الإنسان بهذه اللغات كلها. أؤكد على أن هناك فارقاً كبيراً بين شيئين : الأول تعلم اللغة الأجنبية وأهميته التي لا نختلف عليها. والثاني جعل اللغة الأجنبية لغة تدريس هذه العلوم في المدارس والجامعات. تعلم لغة أجنبية ضرورة بل يصل إلى مرحلة الوجود، واللغة الإنجليزية من أهم ما يجب تعلمه الآن في جامعاتنا، إلا أن تدريس العلوم في المدارس والجامعات العربية بلغة أجنبية - مهما كانت - أمر مختلف كل الاختلاف عن تعلم اللغة الأجنبية وإجادتها والاستفادة من مكتسباتها. وهو ضار للعملية التعليمية وليس نافعا لها.

لغة التدريس :

لغة التدريس في المدارس العامة ومؤسسات التعليم العام والجامعات العربية يجب أن تكون باللغة العربية التي يرجى أن يبدع أبنائها بها، ولا أريد أن أضرب مزيداً من الأمثال على أهمية اللغة الأم والاكتساب للتعلم، فاليابان تدرس العلوم كلها بلغتها مع ما في اللغة اليابانية من بعد وصعوبة على الحس الغربي، وكلنا يعرف قدرة اليابان ونجاحها في الجانب العلمي، وفي الطرف الآخر نرى تركيا وقد تخلت عن أبجدية لغتها ودرست أبجدية الغرب ونحن نعرف الفارق بين اليابان وتركيا وهو ما لا يخفى على أحد. وكذلك إسرائيل التي أحيت العبرية وجعلتها لغة التعليم والحياة مع قرب إسرائيل من حضارة الغرب وثقافته ولغته واتصالها به وعلاقتها معه، ومع ذلك لم تختار لغة من لغات الغرب للتدريس في مدارسها وجامعاتها مع صلتها بهذه اللغات وأهميتها لها، ومع موت العبرية وانتهائها من الاستعمال المعاصر منذ آلاف السنين، فقد أصرت على إحيائها لتميز شخصيتها وهويتها واعتزازها بمكونات الذات الفاعلة بلغتها الخاصة التي تمثل هويتها وتحقق شخصيتها وتميزها عن غيرها من اللغات والشعوب.

حدود الاجتهاد :

إنني عندما أعرض وجهة نظري فإنما أنطلق من تجربة التعليم الجامعي ومتابعتي للعملية التعليمية. وأنا أقدر كل اجتهاد يبحث في مستقبلنا التعليمي ولا سيما الجامعي، إلا أن الاجتهاد يجب ألا يمس الثوابت المتفق عليها في العالم كله وهي أن لغة الأمة تشكل هويتها وشخصيتها التي تعبر عن وجدانها وآمالها وعن

كينونتها وسيادتها ولا يجوز الشك في وظيفة اللغة الأساسية وهي التعلم والتعليم وإلا أصبحت الأمة تشك في وجودها وقدرتها وتستخف بإرثها الفكري وحقها في استقلال الإرادة وذلك ما يوحي به اختيارها للتدريس بلغة غير لغتها واستعمال ثقافة غير ثقافتها.

القرن الحادي والعشرون قرن العولمة

اللغة الفصحى ومدُ العولمة :

ما لا خلاف عليه أن اللغة هي وعاء للثقافة وحاضن لملامح هوية الأمة الثقافية والفكرية ولا شك أن الملمح القوي الساطع في هذا الوقت هو الحديث عن العولمة وعن التحولات الكبيرة في الفكر والقيم والأخلاق التي لا تخطئها العين ولا يجهل حسيبها في الوقت الحاضر، لكن الخلاف حول حقيقتها وماهية ارتكازها وغموض معناها. كما أن أهدافها ومضامينها أشد غموضاً وانغلاقاً، إلا أن هذا لا يمنع من الحديث عن ملامح واضحة تجلت فيما نعيشه وتعيشه أمم غيرنا، وهذا الملمح البين الظاهر الذي نكاد نحسه ونلمسه بأيدينا هو صلة العولمة باللغة والثقافة، هذه الصلة هي بلا شك استلاب لثقافات الأمم غير الغربية ولغاتها بل استلاب حتى للثقافات الغربية غير الناطقة باللغة الإنجليزية، والدليل على ذلك هو أن الدول الغربية نفسها بدأت تخشى على ثقافتها ولغتها وخصوصية تكوينها مما ستجلبه العولمة معها من غطاء عالمي وعاؤه اللغة الإنجليزية وحدها، وقد بدأت الدول في الشرق والغرب تبحث عن مصدات ودفاعات تحافظ على سماتها الثقافية الخاصة بها خوفاً من الذوبان في ثقافة العولمة ولغتها، وفرنسا تصلح أن تكون

مثالاً لما نحن بصدده فقد جمعت أمرها قبل سنوات وأعلنت التعبئة الثقافية ضد العولمة وأقامت الاتحاد الفرانكفوني معتمدة اللغة أساساً له، وعقدت مؤتمراً لهذا الغرض في شرق آسيا (هانوي) ورسمت خطة تجمع الدول ذات العلاقة بالثقافة واللغة الفرنسية أو المتأثرة بالفرانكفونية، وبالرغم من أن فرنسا من أقوى الدول تأثيراً في الوقت الحاضر إلا أنها تعرف أنها لن يكون نصيبها الثقافي في ظل العولمة مساوياً لنصيب الثقافات الناطقة باللغة الإنجليزية المحظوظة التي بقي لها سلطانها، وقوي انتشارها حتى عندما غربت شمس بريطانيا العظمى عن الكرة الأرضية، إذ سطعت شمس الأخطبوط الأمريكي مستعملاً اللغة ذاتها والثقافة نفسها مهتماً بنشرها في الآفاق، وأمام هذا الحال بدأ العالم كله يحصن دفاعاته حول ثقافته المحلية ويتمسك بشخصيته اللغوية، ولا شك أن العالم الذي لا ينتمي إلى ثقافة الغرب وحضارته يخاطر أشد المخاطرة عندما يقبل لغة الغرب الأمرة وثقافته العامرة بالمخترعات والإبداعات العظيمة التي تحمل مضامين حضارته، ومفردات لغته وهو يقيم على إيجابيات العولمة كصفات التعامل مع الآخرين، ولا شك أنه يظهر شيئاً من المرونة والتسامح ويعطي فسحة للخيارات الكثيرة المتاحة لأن العولمة على ثقة من قدرتها على الاختراق الثقافي الذي وعاؤه اللغة وهي قدرة كبيرة. وقد أدرك بعض الباحثين العرب واقع الحال وأثر الثقافة الحادثة وعولمتها في حاضرنا العربي مع تجربة اللغة في وظيفة الغزو والاستلاب الثقافي قائلاً: "إن النظام الجديد في عالميته لا بد أن يتضمن مشروعاً لغوياً لأن اللغة هي الحامل

الأكبر للمنتج الثقافي وهي الجسر الأعظم للمسوق الإعلامي وهي السيف الأمضى للاختراق النفسي وعليها مدار كل تسلل أيديولوجي وكل اندساس حضاري" .

إن المخططين للأمم والعولمة والكونية يعلمون يقيناً بأن اللغة هي أم المرجعيات في تشييد المعمار الحضاري، وفي بناء صرحه الثقافي، وليس من عاقل يسلم باكتساء النظام العالمي الجديد ثوب الحرب الاقتصادية والثقافية إلا وهو يسلم تسليمًا طوعياً، بأن ذلك النظام على تعدد أربابه، حامل لبذور الصراع المحتدم. كل على شاكلته وكل بحسب طاقته في الجذب أو بحسب أسلحته في خلخلة النفوس واحتلال الأذهان.

إن الكونية الثقافية هي الاستعمار الجديد بلا ريب وللإستعمار نواميسه وله كذلك منظومة تديرها قوانين ثابتة، ولا بد أن يجنح الإستعمار الجديد إلى اقتفاء أثر الثوابت فيعيد إنتاج نمودجه التاريخي الأول ولا سيما في الربط الآلي بين التسلط السياسي والتسلط اللغوي، بل لا بد هنا أن تصدق المقولة ولو مرة واحدة (إن التاريخ يعيد نفسه)^(١) .

ولست أظن أحداً يشك في إدراك الدكتور عبد السلام المسدي صاحب النص السابق لأهمية الثقافية واللغة ووظيفتها الأيديولوجية ومعرفته بأركان اللعبة الثقافية اللغوية وواقع العرب والمسلمين الذين تضعهم الأقدار في مواجهة غير متكافئة مع أم تقود العولمة الاقتصادية والثقافية بوعي واضح الأهداف لما تريد وتتجه بتقلها

١. الدكتور عبد السلام المسدي، اللغة ومخاطر العولمة، الرياض، ٢٧/١٢/١٤١٨هـ.

العالمي لتحقيق مصالحها في الوطن العربي بخاصة، وفي العالم الثالث عامة وهي تحتج بقدرة فائقة لأغراضها وتتوسل بكل الوسائل المختلفة لتذليل العقبات في سبيل مدها المتقدم إلى العالم الضعيف، متخذة الطرح المغلف بسياج رقيق من المصالح والفوائد المشتركة أو التي تبدو كذلك عند النظرة السريعة إلى ظاهرها.

واللغة هي الوسيلة التي تحرك المشروع الثقافي والحضاري المعاصر، والعولمة بشقها الثقافي واللغوي هي التي تواجه التحدي من ثقافات الأمم والشعوب الواقعة تحت ظل العولمة الجديدة، وإذا كانت أركان العولمة هي الجانب الاقتصادي والعسكري والثقافي فإن أقوى هذه الأركان الثلاثة وأخفاها أثراً في التسلسل إلى عقول الشعوب المغزوة، وأقدرها على خلخلة كيانات الأمة، هي (الثقافة) لغة ومضموناً حيث تسبق المرحلتين الأوليتين، وتأتي تمهيداً لهما، ليكون الاستعداد تاماً والاستقبال سهلاً والإغراء ممكناً والتفاهم والتواصل مقبولاً.

وإذا كنا نلمس في الطرح الإعلامي الغالب النفس العالمي للثقافة وللإقتصاد بل حتى التقاليد والأعراف الاجتماعية، فإن التبشير بأن تكون هذه الأمور كلها موحدة أو متقاربة أشد التقارب بدأ يلوح في الأفق الحديث عنه، والقبول به أصبح أمراً معقولاً لدى قطاع كبير من المثقفين وغيرهم من أصحاب النظرة السريعة. وما يترتب على ذلك من سؤال هو : لماذا نخاف العولمة ما دامت الفرص المتاحة والحياة الاجتماعية المقبلة في كل صورها ستكون واحدة؟ وما دام الإنسان سينعم بمجتمع إنساني واحد، تجمع روابط البشرية والإنسانية ؟ والإجابة لن تأتي على شيء مما سبق إلا إذا عرف المرء أن الصورة المطلوبة للعولمة الثقافية واللغوية لا

تجمع الثقافات واللغات والأمم والشعوب في المعمورة وتتسق بينها وتخلق منها صوراً للوحة الحياة البشرية التي سترسم على الأرض للمستقبل، وليس كل ثقافة في حاضر العولمة ستحتل مكانها الذي يناسبها في اللوحة العالمية القادمة ، ولو كان الأمر كذلك لرضي الناس بأن يكونوا إخواناً متساوين ومشاركين في الحياة التي يعيشونها في كوكبهم الصغير. ولكن العولمة التي تنادي اليوم بالاتحاد ونفي الفوارق الثقافية واللغوية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، لا ترضى بالمشارك الثقافي ولا الاقتصادي، ولا السياسي، ولكنها ستختار مثالها المفضل سواء أكان هذا المثال عسكرياً أم سياسياً أم اقتصادياً. والنموذج الذي تريده العولمة وتختاره هو النموذج الغربي ، النموذج القادم إلى العالم كله بصورة الرجل الأبيض بثقافته الخاصة وبلغته وحضارته التي يمجدها ويعتز بها إذن فالعولمة المطلوبة هي أن تختار ثقافة غيرك ولغته، وأن تلجأ إلى الثقافة القادمة المسماة عالمية، تختار ما تحتاج إليه لتحل محل ثقافتك التي لا تصلح للعولمة في رأي الرواد العالميين في الوقت الحاضر. ثم إن الدعوة إلى الانضواء في أطر ثقافة العولمة ولغتها هي دعوة الأقوياء يستجيب لها الضعفاء أو يُكرهون عليها وهي دعوة مغلّفة بغلاف أن تكون الدنيا قرية واحدة والناس مجتمعاً واحداً، والعولمة قدراً أديماً للجميع. لكن الغفلة عن قسمة الحظوظ في هذه القرية الواحدة، وإنكار الواقع الذي يعيش عليه أهل القرية هما موضع السؤال. وهما محور الإجابة التي نبحث عنها ولكننا لا نجدتها بسهولة وهذا يقود إلى أن ننساق مع ثقافة الأقوي المؤثرة ولغته المنتشرة والميسرة ونتجافى عن لغتنا التي هي وعاء ثقافتنا متخذين الثقافة الطارئة ولغتها بديلاً عالمياً. وقد عالج

الكثير من المثقفين المعاصرين هذا الميل الغالب على التوجه في العالم العربي إلى الثقافة ذات الأبعاد المتكاملة، وهذا أحد الباحثين المعاصرين يقول: "تعتقد النخب الاجتماعية في البلدان النامية أن الثقافة الإيجابية هي تلك التي تشجع الانطلاقة الاقتصادية أولاً وتساهم في جهود التنمية"^(١)

وتكريس القطيعة الثقافية مع المحلية والقومية هو محور الجدل القائم حول العولمة وماهيتها، وصلتها بالثقافات غير الغربية، ومدى القدرة التي ستواجه بها العولمة من قبل الثقافات المختلفة بأبعادها التي تستدعي أطراف الاهتمام العالمي الجديد المؤثر الذي تلخصه العبارة الآتية: (إن الحضارة الغربية تمثل خلاصة التطور الكوني المطلق بيد أن المجموعات الأخرى ما تزال بدائية تعيش في طور التوحش والهمجية والقبلية وشتى أوجه الانحلال والجهل والفقر والبؤس والتخلف، فهل يعيد التاريخ نفسه ؟ لا، فالوقائع تتغير، والأطراف تتبدل والمسوغات تنتوع ولكن الدم التاريخي يتجدد وهذا هو الذي يمسك (بأعناقنا) إمساكاً. إن أممية سياسية وعولمة اقتصادية لا بد أنهما تستدعيان الكونية الثقافية استدعاءً ولا تهمل انتظاراتاً ولا ترجى إنجازاً، والذي يزيد الباحث الثقافي حيرة فيضاعف تشبته الذهني هو ضياع سلم المرجعيات العقلانية في مستوى المنهج والنظرية^(٢) .

١. برهان غليون، الوعي الذاتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، ص ١٠٢.

٢. عبد السلام المسدي، البصيرة الثقافية الجديدة، جريدة الرياض، العدد ١٠٩٥١ في ١٤١٩/٢/٢٤هـ.

إن ما يحصل في عالمنا العربي وفي البعد الإسلامي أيضاً هو ضياع سلم المرجعيات وتشتت الرؤية التي تواجه بها الثقافة العربية ولغتها الثقافة الغربية، أو إن شئت فقل الثقافة العالمية التي يبشر بها العصر الجديد، وهي ثقافة لا شك أنها تجاوزت إشكالية المرجعية وحلت معضلة النموذج والإطار الذي تختار مسارها الثقافي فيه، وطبقاً لذلك قد أطرت أسس العلاقة بين العامل الإرادي والعامل الظني. انتهت الثقافة الغربية - أو إن شئت تحديداً أكثر فقل - : الثقافة الناطقة بالإنجليزية، من ردم الهوية السحيقة التي تكونت بفعل الزمن وموروث الأسلاف، وخلصت هذه الثقافة الغربية من التراكم الكمي الذي خلفته عصور الظلام في أوروبا وعصور الانحطاط فيها. فلم يعد هناك إشكال في تحديد الأشياء وفي تعريف الأسماء.

هناك مرحلة تاريخية مظلمة سوداء صنفها الحضارة الغربية وخلصت منها وانتقلت إلى حضارة النور وحضارة الفكر والحياة. ولا يعني ذلك أن تاريخها الحديث لا يعرف الظلام والتخلف، لكنه يعيش حياة الواقع الذي يشرق فيه جانب فيضيء نفسه والعالم، كما يوجد فيه جانب آخر تحتله نقاط حالكة السواد، لكنه سرعان ما يتخلص من هذا السواد في ثقافته الحاضرة، ويربطه بتاريخه المظلم الماضي ويرسله إليه، وتاريخه الحاضر يفرز الواقع ويتعامل بوعي إشراقي جذاب. فما كان ظلاماً قاتماً أحاله إلى شكله ومثيله من التاريخ، وما كان مشرقاً مضيئاً أضافه إلى حاضره، وتطلع به إلى المستقبل. بهذا التصنيف استطاع المجتمع الغربي أن يقر في الأذهان غلبة الإشراق على الظلام في ثقافته. وقد طرد فجر هذه الأمة الغربية ظلامها، وانتشرت ثقافتها. وهي بهذا الوعي المتميز تعامل الثقافات

الأخرى، تريدها أن تختفي في ظلها وتتبع الضوء الذي تشعه الحضارة الغربية، ولا غرو فهي مزهوة بهالتها وجاذبية العطاء المتميز فيها، ولعلها تكون على بعض الحق حين تريد من العالم أن يتخذها مثلاً، ويسير خلفها في ركب العولمة، أو بالأصح يسير في ظلها يحمل من ثقافته ما يمكن أن يضاف إلى نموذج الغرب الذي يسير عليه، ويتخلى عن كل نماذج التضاد والتعارض التي يكونها عامل الضدية في الثقافات الأخرى.

والعولمة بفتوتها وشبابها المتجدد في هذا العصر تنظر بعين الوعي للثقافات القديمة ولغاتنا نظرة فيها مسحة الإشفاق والرحمة لها من زمانها وشيوختها، وتعرف عجز أهلها عن التجديد فيها، ولكنها أيضاً قادرة على استقراء الحياة والواقع الذي يجعل أهل كل ثقافة يتمسكون بها ويحافظون عليها، ولهذا السبب قد تظهر العولمة الثقافية بمظهر الحياء التام في قضية الثقافة واللغة، ومن هذا الإحساس والظهور انتقلت إلى الحديث عن ثقافة العولمة وليست ثقافة الدول الغالبة التي كان التبشير بها هو مفهوم العقود الماضية أول القرن العشرين حتى الانفراج الذهني الذي أتى بالعولمة لتكون شمولية تامة للثقافة وللسياسة وللغة في القرن الحادي والعشرين بل لكل منفذ من منافذ الحياة فالأمر هو عولمة وهذه لا تخص أحداً. لذلك يكون الاطمئنان إليها أكثر والحذر منها أقل.

إن ثقافات الأمم والمجتمعات غير الغربية تقع اليوم في ظل ثقافة العولمة وفي مدارها الطويل وتحت ذراعها الممتدة إلى الآفاق، وفي كل الاتجاهات وهو مدار ساخن، يثير كثيراً من المشكلات المتوقعة، ويؤثر أكبر الأثر على مستقبل

العالم الثقافي، الذي تمد إليه العولمة ذراعاً قوية تحركها بكل مهارة واقتدار، وفي كل اتجاه تتوجه إليه الثقافات التي ستقبل الانضواء في إطار العولمة وصيرورتها أو التي ستحاول الانفضاض عنها، وترفض القبول برفع شعارها.

إن اللغة والثقافات ذات الفكر البشري والإرث الحضاري والتميز التاريخي ستحتاج بدون شك عن طريق العولمة، لأنها لن تقبل الانقياد المباشر ولا الاندماج السهل، ذلك لأن الثقافات لها طبيعتها التي تستعصي أحياناً على الذوبان، ولها قاموسها الذي يرفض المغريات، واللغة والثقافة نتاج بشري له طبيعة البشر واختلافه، وقابليته للتحدي والمصادمة أو الخضوع والانقياد. وقد فرضت ثقافة العولمة بأبعادها السياسية والاقتصادية واللغوية سيطرتها وخلصت من التحدي المحتمل لكل الثقافات. وهي تضع الخيارات الممكنة لهذا التحدي أمام الثقافات المغزوة وتضع الخيارات الصعبة للتعامل مع هذا التحدي ومقاومته، ومن الخيارات المتوقعة خيار المهادنة والاستسلام وخيار المواكبة والسير في رحاب الاتجاه العالمي أو خيار الإنكماش والانطواء. تلك خيارات ممكنة وقد تكون مقبولة للغرب، كما قد يكون التعامل معها على أساس الهيمنة والغلبة مقبولاً.

أما الخيار الصحيح للغتنا وثقافتنا فهو خيار الموازاة والانطلاق من عقل المحلية والقطرية إلى روح العربية الجامعة وإلى ثقافتها وشفافيتها ودفع عجلتها لتسير مع الثقافة الغربية موازية لها ومتحدية لغلبتها وسلطانها. إن الثقافات ذات العمق الحضاري والإرث التاريخي قادرة على التحدي وقادرة على الصمود وقادرة على الاستقلال بشرط ألا يكون المعوق لها هو ارتكاسها في نظرتها إلى بعدها

التاريخي وموروثها الثقافي وحده، فيكبلها هذا الموروث، ويربك سيرها، ويعطل الإرث حركتها نحو المستقبل، وما نعانیه في لغتنا العربية وثقافتنا الإسلامية هو ضرب من هذا الإرباك والتردد حيث لا نعرف بالتحديد ما نريد من موروثنا الثقافي وما نحتاجه اليوم، وما لا نريده اليوم ونحتاجه غدا. إن تقصيرنا في الانتقاء والاختيار هو موضوع العجز الذي نعاني منه ونشعر به أمام ثقافة العولمة. وأول الأدلة على هذا العجز إعراضنا عن لغتنا وتشبثنا بلغة الغرب وانقيادنا لها.

الثقافة العربية تستطيع بلغتها الموازة والسير إلى الأمام وتستطيع الإضافات الحضارية أو فقل : إنها تستطيع الاستغناء بذاتها عن ثقافات العالم وهي قادرة على الأخذ والعطاء كغيرها من الثقافات المتينة والحضارات السامقة، لكن السؤال الذي لا نجد له جواباً مقنعاً هو : متى نحدّد علاقتنا بالثقافة ؟ ومن أين نبدأ الحاضر الذي ندفعه للمستقبل ؟ وكيف نفرز هذا الكم الهائل من الموروث البشري ونصطفي منه الصالح ونحافظ على لغتنا وثقافتنا حية فنجعلها إناءً لما نصطفي من الماضي، وما نحدث من مشاركة للمستقبل ؟ وإذا عرفنا وظيفة الثقافة استطعنا التعامل الصحيح مع اللغة ومع الثقافات العالمية وأخذنا مكاننا من العولمة دون أن نفقد هويتنا الثقافية، ودون أن تهتز الثوابت الصالحة للاستمرار، ولكنني أكرّر : إننا بحاجة إلى غريلة موروثنا الثقافي، والانتقاء، وأخذ الصحيح الصالح وترك الإفراز الضعيف الذي تهزه أقل المؤثرات، فتراه يتبدل أو يتعطل عندما تعصف به عواصف التغيير، ويفقد توازنه أمام طوفان المد الذي لا يكاد يقف عند حد معين.

استشراف المستقبل

المستقبل بيد الله سبحانه وتعالى ، والعمل له بأيدينا ، والإخلاص واجب علينا لمستقبل اللغة والثقافة بل مستقبل الأمة كلها ، ولا شك إن إدراك الواقع الذي نعيشه بكل ما فيه من منبّطات وبكل ما فيه من إبطات هو أول طريق التصحيح لمناشط حياتنا كلها واللغة الجامعة الموحدة هي أهم تلك المناشط. أما مستقبل اللغة فهو قرار سياسي بدأ بقول عمر أقرئ الناس بلغة قريش، وأكدّه أمر عثمان لكتابة المصحف إذا اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوا ما اختلفتم فيه بلغة قريش، وهي قرار سياسي عندما قال معاوية لجلسائه: من أفصح العرب؟ فأجابه المجيبون: قومك يا أمير المؤمنين. منذ تلك المقولات حتى يوم الناس هذا واللغة قرار سياسي واجتماع شعبي، وإذا أردنا اليوم أن تنهض الأمة من وهبتها وتنهض لغتها فعلينا أن نبحث عن هذا القرار السياسي والتوجه الشعبي عندئذ -وعندئذ فقط- تنهض الأمة بوحدها اللغوية وتنهض اللغة المعبرة عن جمهور الأمة. وأول قرار يجب اتخاذه هو قرار تعريب التعليم الجامعي وحماية اللغة من المنافسة غير العادلة مع اللغات الأجنبية أو الارتيان إلى اللغات العامية.

أما متى يتخذ هذا القرار ، فيتخذ إذا قام العلماء والمفكرون وأهل الرأي بالمطالبة والإصرار وتقديم البدائل التي يتعلل بعدم وجودها المتعلّلون ، يجب أن نقف وقفة رجل واحد ونقول برأي واحد ونحرّض طلابنا وشبابنا على أن تكون لغتنا هي لغة الحياة والتعليم والخطاب الرسمي السياسي والشعبي، متى فعلنا ذلك فمستقبلنا ومستقبل لغتنا في خير .

الخلاصة :

إن مؤسساتنا التعليمية التي عليها توجيه النشء يجب أن تكون فاعلة ومؤثرة في التوجيه، كما ينبغي عليها أن تطور مناهجها الثقافية الواعية. وهذا ما يجعل العودة إلى ركيزة ثقافية مرجعية في هذا الوقت الحرج من حياتنا ضرورة وفي غاية الأهمية، ومطلباً ملحاً ينبغي أن نصدع به، ولعل هذا المغزى هو ما نحاوله عندما نحاول إحضار قيم الماضي وأخلاقه بلغة عربية معاصرة وأسلوب محدث قريب من إدراك المتقنين، متضمناً حصيلة الماضي، وقيمه وموضحاً تصور العرب للأخلاق الفاضلة، غير منقطع عن التحديث والمعاصرة التي هي أساس نمو أفكار الناس وناموس الحياة.

إن مستقبل النشء يتطلب من العرب اهتماماً خاصاً باللغة بصفاتها وعاء للثقافة لأن البشر كلهم يواجهون تغيراً ثقافياً وقيماً وعالمياً، ولا شك أن سرعة التغير الحاد غير المعهود تاريخياً، تهدد بنسخ سائر الأطروحات للخصوصية الاجتماعية.

المراجع

الفصحى، ونظرية الفكر العامي:

مرزوق بن صنينان بن تنباك.

الطبعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٨ م. مطابع الفرزدق، بالرياض.

فلسفة اللغة:

كمال يوسف الحاج. الطبعة: ١٩٦٧ م. دار النهار للنشر، بيروت.

لغتنا والحياة:

عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ. الطبعة: ١٣٩١هـ - ١٩٧١ م. دار

المعارف بمصر.

اللغة والحياة والطبيعة البشرية:

روي، سي، هجمان. ترجمة: داود حلمي أحمد السيد. الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

اللغة والمجتمع، رأي ومنهج:

محمود السعران. الطبعة الثانية ١٩٦٣م. دار المعارف.

اللغة ومشكلات المعرفة :

نعوم تشومسكي. ترجمة حمزة قبلان المزيني. الطبعة الأولى - ١٩٩٠م.
توبقال - الدار البيضاء.

من حاضر اللغة :

سعيد الأفغاني. الطبعة الثانية ١٩٧١ م. دار الفكر.

الوعي الذاتي

برهان غليون. الطبعة الثانية ١٩٩٢م. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

جريدة الرياض.

جريدة السياسة الكويتية.

جريدة المدينة المنورة.

جريدة الشرق الأوسط.

مجلة الهلال المصرية.